

أثير عبد الله النشمي



# في ديسمبر تنتهي كل الأحلام

رواية

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^RAYAHEEN^



[www.mlazna.com-RAYAHEEN](http://www.mlazna.com-RAYAHEEN)

أنا مكنث.. مكنث جداً.. وعادة لا تصيبنني  
 الكتابة أثناء كتابتي لأي عمل.. أنا رجل  
 لطالما أحب مرحلة الكتابة، رجل يستمتع  
 بكل ما يصاحب تلك المرحلة المرهقة من  
 أرق وألم وتضارب في المشاعر، لكنني، وما  
 أن يرى كتابي النور، حتى أصابها اكتئاب  
 ما بعد الكتابة، فأكره كتابي (الوليد) لدرجة  
 أشعر معها بالرغبة في أن أوثده وأتلف كل  
 نسخه.. لكن حالة الكتابة بدأت مبكرة هذه  
 المرة.. استيقظت كتابتي توفعير، واستيقظت أيضاً  
 روايتي الجديدة.. ولا أدري إن كنت قادراً على  
 أن أصعد حتى ينابر القادم أو حتى إصدار  
 الرواية -

اثير عبد الله النشمي، من مؤلفي سونيو  
 1984 م.

- سعودية، مقبلة في الرياض وكتابة أسبوعية في  
 جريدة شمس.

- صدر لها: أحبيتك أكثر مما ينبغي، دار القارابي.  
 ط 1 2009، ط 2 2010.



## الإهداء

إليكم..

لا تسألوا الطير الشريد، لأي أسباب رحل..!

لأروى جويلا

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^RAYAHEEN^

الكتاب: في ديسمبر تنتهي كل الأحلام

المؤلف: أمير عبد الله النشمي

الغلاف: قارس فصوص

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان

ت: (01)301461 - فاكس: (01)307775

ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 1107 2130

e-mail: [info@dar-alfarabi.com](mailto:info@dar-alfarabi.com)

[www.dar-alfarabi.com](http://www.dar-alfarabi.com)

الطبعة الأولى 2011

ISBN: 978-9953-71-672-5

© جميع الحقوق محفوظة

## مدخل

"الرواية طريقة الكاتب في أن  
يعيش مرة ثانية قصة أحبها، وطريقته  
في منح الخلود لمن أحب \* ..  
أحلام مستغانمي

تدهشني كثيراً هذه المرأة.. تدهشني فوضويتها في الحياة، جنوح مشاعرها.. و"اللاشيء" الذي يربطها بأي شيء أو أحدا.. لست أعرف إن كان هذا هو ما يغريني بها.. ما أعرفه جيداً هو أنها امرأة استثنائية، خلقت من "طين" لم يخلق منه بشر.. وأعرف أن هذا يغريني، يغريني جداً.. أنا التواق إلى تجربة ليست كأي تجربة، لقدري لا يشابهه قدر.. لامرأة أقامر بها ببسالة من دون تردد أو خوف..

أظن بأنني أجازف معها كثيراً، أراهن على مجهول لا يربطني به سوى إيمان خفي ينبثني بأن فيه الكثير من الغاز السماء، لكن على الرغم من أنني أعرف جيداً بأن حلول تلك الألغاز ستظل عالقة هناك، وبأن إجابات الأسئلة ستظل معلقة، إلا أنني لست شغوفاً بكل تلك الإجابات وتلك الحلول.. أنا لا أحتاج لأن أدرك

ماهيتها.. هي التي أفهم فيها كل شيء.. ولا أعرف عنها شيئاً..

أنا لا أحتاج لأن أعرف من هي.. وإلى ماذا سنؤول.. كل ما أحتاجه هو أن أمارسها كعبادة.. أن تظل في حياتي القانون، والدين والخط الأحمر.. هي التي لا تلتزم بأي من هذا.. ولا تؤمن بأي رادع..

أذكر أنها قد قالت لي يوماً: إنَّ القوانين وضعت ليلتزم بها بعضهم، وليخرقها آخرون..

سألتها حينها: من أيّ الصنفين أنت؟

— أنا لا أخضع للقانون حتى ألتزم به أو أخرقه.. فلتعرض بأنني خارجة عنه..!..

وابتسمت حينها، لأنني كنت أدرك بأن امرأة مثلها مستثناة من كل القوانين، لا يحكمها نظام.. ولا يقيد بها دين.. ولا تؤمن سوى بنفسها..

يدهشني كثيراً أنها لم تسألني يوماً عن اسمي!.. يدهشني أكثر أنني لم أجرو يوماً على أن أسألها عن اسمها.. وكأننا نخاف الأسماء.. وكأنها تشير إلى ماهيتها التي لا نرغب بمعرفة حقيقتها يوماً.. كلانا يفضل أن يبقى الآخر شهيماً بغموضه، مشيراً بكونه

مجهولاً.. كلانا أحب هذه اللعبة، وغرق في الآخر حتى النخاع بكل هذا الكم من الشغف والحب والثوق.. بلا ماهية تميزنا.. ولا قانون يحكمنا.. ولا أسماء نُعرف بها..!..

أعرف بأن هناك ما يربطنا، ما يبقينا مشدوقين إلى بعضنا بعضاً على الرغم من مرور كل هذه المدة.. هناك انقلاب عنيف، جنون صارخ.. أحلام محرمة، ولغة ثائرة تجمعنا.. أنا وهي الجاثخان بشدة، الثائران بغضب، المتمردان بلا حدود.. الباحثان عن شيء لا يدركانه بلا خريطة ولا خطة ولا أدنى فكرة..

كيف أحبها بكل هذا العنفوان من دون أن أعرف عنها شيئاً!.. وكيف لا أعرف عنها شيئاً وأنا أعرف منها وبها كل الأشياء..

لما يشتتني "أحياناً" جهلي باسمها، بعمرها، بمكان مولدها، بعمل تزاوله في الحياة!..

لا أدري إن كان جهلها "بي" يفعل "بها" بعضاً مما يفعله "بي" جهلي "بها"!!.. حقيقة، لا أدري، لكنني أعرف جيداً بأننا لسنا كسوانا، بأن التخمينات تجمعنا ولا مكان للحقائق بيننا..



تخميناتي تصرّ على أنها هاربة من أرض بعيدة..  
أرض قاسية.. جعلت منها هذه المرأة "الثائرة" جداً..  
لكن لغتها العربية المفرطة "البياض" لا تشير إلى  
رقعة!..

ملامحها المتغيرة "دوماً" لا تشير إلى عمر محدد..  
في كل مرة أراها فيها.. تدعشني ملامحها وكأنني أراها  
لأول مرة.. لكل جانب من وجهها عمر، لكل ابتسامة  
طبع.. ولكل نظرة حكاية..!.. لست أعرف إن كانت  
في الثلاثينيات من عمرها أم أنها تعيش أربعينياتها  
برشاقة!.. ولهذا سيبقى عمرها معلقاً في تخميني حتى  
دلالة لاحقة..



ظننت بأنني خلقت لأكتب فقط.. لم يكن يعنيني  
شيء في حياتي كلها سوى أن أكتب.. كنت أتوق إلى كل  
حرف في كل وقت لأن الكتابة بالنسبة لي كالحاجات  
الملحة.. لم تكن كهواية أمارسها في وقت الفراغ بل  
كانت كالرغبات الحادة التي لا تقدر على مقاومتها، ولا

نجيد السيطرة عليها وإن كانت تنهكتنا على الرغم من  
اللذة!..

لطالما ظننت بأن الأمر سينتهي بي برفقة أوراق  
وقلم... كنت أعتقد بأنني أعرف جيداً ما سأنتهي إليه،  
وبأن حروفي وحدها من ستحزن عليّ، لكنها عندما  
جاءت ما عاد الموت يشقيني، ما عاد الحرف يفريني وما  
عدت أفكر في ما وراء الموت والأشياء والكلمات..

عندما نتحدث يسقط الفلاسفة في نظري، يتخبط  
العلماء، يتلعثم الشعراء.. وينهار كل كبير عداها..  
حينما أتوغل بها، أشعر بأنني قد غزيت العالم  
وامتلكته!.. أشعر بأنني قادر على استباحة كل شيء،  
كل شيء!.. ورجل سايكوباتي مثلي يهوى السيطرة،  
القوة، التحكم، العنف.. والاستباحة!.. وقد كانت  
بالنسبة لي جميع الخلق وكل العالم، فاستبحتها حتى  
"آخري"، لأن مداها لا نهاية له.. ولأنها امرأة لا آخر  
لها..

لو تدري كم أهواها!.. كم أحشق حالاتها  
كلها!.. هي التي أتجرد أمامها من كل شيء، والتي

تتجلى أمامي كشمس حرة لا يقدر مخلوق على حجبها..  
هي امرأة لا تحجبها سوى قوة إلهية عظمى، امرأة لها  
القدرة على أن تتسامى حتى حدود السماء.. لكنها تعود  
أدراجها عندما تشتاق إلي.. لتعبت معي وتلهو بي من  
دون أي إحساس بنشب المعصية..

هي مزيج للذيذ، تركيبة عجيبة ومثيرة في الوقت  
ذاته.. أراقبها عندما تتصل مني فجراً وهي تغادر الفراش  
لتنضم سريعاً وتصلّي بعد ليلة طويلة من اللذات  
المحرّمة.. تصلّي بعفوية وكأنه لا يحجبها عن الله  
شيء.. ومن ثم تعود إلي لتستكمل معي عبادة من نوع  
آخر.. عبادة أكون فيها الإله والمشرّع هذه المرة..

تشرعني دوماً بأنها تعرف السبيل إلى الله، هي التي  
قالت لي في لحظة سكر، بأننا لا نستدل على الله بل  
نستدل به.. ولا أزال، حتى هذه اللحظة، غير مدرك  
كيف تستشهد امرأة في آخر مراحل الثمالة بأحاديث  
قلبية..

أتوق كثيراً لأن أفهم موروئها اللامنتظي، لأن أدرك  
مخزونها من المتناقضات اللامنتهية، لأن أمارس معها

الفجور، كل أنواع الفجور.. مثلما يغريني أن أراقب  
طاعتها لمخالق قطعت علاقتي به منذ زمن..

لم يعد يخيفني شيء بعد أن عرفت أنها سوى أن  
أخسرها.. أخاف كثيراً من أن تختفي فجأة مثلما  
ظهرت فجأة.. أن تعود إلى المجهول مثلما جاءت من  
حيث لا أدري!..

قد لا تدرك كم تفضّ مضجعي الأسئلة.. تاريخها  
لا يعنيني أبداً.. لا أكثرث لكم من رجل عبّرها قبلي،  
ولا لكم من رجل نبض قلبها.. لكنني أخشى كثيراً أن  
تكون زوجة لأحد!.. ثرعتني الفكرة، ولا قدرة لي على  
سؤالها عنها، لأننا اتفقنا "من دون أن نتفق" على أن  
تظل كل الحقائق معلقة، أن نرضى بمصادقات القدر وأن  
نعشق بعضنا بلا عناوين ولا أسماء.. لكن امرأة متعردة  
مثلها يتوقع منها أي شيء!.. هي امرأة لا تلتصق في  
الحضور.. قد تغادر في أي لحظة ولا تعود.. وأمثالي  
لا يبحث معهم في أمور الغياب..

حيثما سألتها مرة بعض الأسئلة، اختفت فجأة!..  
عاقبتني بالغياب فبت أبحث عنها في كل مكان.. كنت  
أمشط الطرقات بحثاً عن امرأة لا اسم لها ولا عنوان..



ظلمت أبحث لأسابيع، اعتزلت فيها عن كل شيء سواها.. شعرت، وقتذاك، بأن كبريائي يحترق، لكنني لم أكثرث لكبريائي تلك المرة، لم يهمني شيء، وقتذاك، سوى أن أجدها!..

أذكر اللحظة التي وقعت فيها عيني عليها بعد طول غياب، رأيتها تجلس في أحد المقاهي المفتوحة التي كنا نرتادها للقاء.. تدخن بهدوء مستفز، أمامها كوب قهوة، كتاب تزيه صورة لقولتير، وعيناها مصويتان نحوي بنديّة!..

أقربت منها وأنفاسي تتصاعد بحرارة، لكنني لم أجرو على أن أنطق ببنت شفة، تفحصت ملامحها لتأكد من أنها لا تزال كما هي.. وقد كانت كما لو أنها غادرتني قبلها بليلة، وإن ازدادت نظراتها تحدياً!..

قالت لي وغيط من الدخان يتصاعد من بين شفثيها: ألا تزال لديك أسئلة!؟..

مستكتها من ذراعها بقوة وهمست في أذنها: هيا بنا!..

جاءت معي، ركبت سيارتي من دون أي مقاومة.. لكننا لم نتحدث طوال الطريق.. كنت أسترق النظر إلى

كتاب فولتير النائم في حضنتها بغضب، لم أكن بحاجة إلى الكثير من الذكاء لأدرك بأنها قد أحضرته لي!.. فهي لا تحب فولتير ولا تقرأ له إلا من أجلي.. كانت تعتقد بأنها ستصالحني به.. لذا كرهت فولتير كثيراً يومها!.. كرهته لأنها ظنت بأنه قادر على أن يعوّضني عن أيام غابت فيها عني!..

ليلتها، كنت قاسياً معها.. لكنني لم أعاتبها خشية أن تعاود الغياب.. ولم تسألني هي عن سبب خشونتي، ربما لأنها كانت تدرك أسبابه!.. كنت خائفاً جداً لأنني بت أعرف بأنني قاب قوسين أو أدنى من اختفائها!..

سألتها بعد ذلك بأيام: كيف تفعلين هذا!؟.. كيف تختفين فجأة وتظهري فجأة!؟..

قالت بسخرية: أنظن بأنني ساحرة!؟..

- لما تجيبين عن الأسئلة بالأسئلة!؟..

- ألم يقل فولتير بأننا لا بد من أن نحكم على الأشخاص من خلال أسئلتهم بدلاً من أن نحكم عليهم من خلال إجاباتهم!؟..

- وهل ظننت بأنني سأحكم عليك من خلال إجاباتك!؟..

- لماذا تسأل كثيراً إذن؟ ..

- لأنني بـت أشك في ماهيتك! .. صدقيني أصبحت أشك في حقيقة وجودك ..

- أنتك في وجود ما تدركه بحواسك؟ ..

- لا أعرف، ساعديني أنت .. أنقليني من حالة الشك هذه ..

- ألا تؤمن بأن سبب الاضطراب والقلق هو الإلحاح في معرفة الأشياء كما يؤمن بعض أصدقائك من الفلاسفة؟

- وبماذا تؤمنين أنت؟ ..

- أؤمن بأن اليقين ما هو إلا ادعاء .. ويأنه لا وجود للحقائق المؤكدة في هذه الحياة .. كل ما يحيط بنا مشكوك في وجوده ..

- حتى أنت؟ ..

- حتى أنت! ..

قلت بسخرية: لكنك تدركيني بحواسك كلها ..

- ألم تسمع بالوهم يوماً؟ ..

ضممتها بشدة ويدي تتحسسان جسدها: أنت

حقيقة؟ ..

- أنت حقيقي؟ ..

- أتدركين كم تجلين طرح الأسئلة؟ ..

- أتدرك أنت بأنني لا أجيد الإجابة عن شيء؟ ..

- أجيبيني عن سؤال واحد فقط، وتجاهلي كل ما سأطرحه عليك يوماً ..

- لست بقادرة على أن أجيب عن أسئلتك! ..

- ألا ترغبين بمعرفة مقالي أولاً؟ ..

- أنظن بأنني لا أعرفه؟ ..

- ماذا عنك؟ .. ألا تحتاجين لأن أجيبك عن شيء؟ ..

شيء؟ ..

- وهل مستجيبني؟ ..

- أظن بأنني سأفعل! ..

- أظن بأنك لن تجروا ..

وضعت رأسي على صدرها وقلت: لجسدك رائحة

القصاصد! ..

- وهل للقصاصد رائحة؟ ..

- للقصاصد رائحة لا يميزها سوى الشعراء ..

- أنت أحدهم؟ ..

- أنا قلم، مجرد قلم!، ماذا عنك؟ ..

- أنا حكاية!..

- ألن تكفي عن التراشق بالكلمات معي؟!..

- فلتكف أنت..

قبّلت رأسها. لا بأس. أحبك هكذا بأسرارك

والغازك كلها!..!..

ابتسمت ساكنة، فرحت أفكر فيها كحكاية أسطورية  
من ألف ليلة وليلتين، حكاية أحتفظ بها بيدبا لديبشليم  
وحده.. فلم يطلع عليها أحد سواي!..



غبت طويلاً هذه المرة..

لكنني لا أحاول التفكير في أسباب الغياب، أتجنب  
التفكير في متى ستكون عودتها لا أفكر في إن كانت  
هناك عودة من الأساس.. كل ما أفكر فيه حقيقة هو أنه  
لا بد من أن لها أسبابها!.. الأسباب التي يبدو يأتي لن  
أعرفها يوماً..

أحاول أن أعرض غيابها بممارسة عاداتها كلها، أنا  
الذي لم أتبن يوماً عادة لأحد. لكنني بت أمارس  
عاداتها وكأنني استعشتها من خلالها على الرجوع...

أصبحت أشتيق كل يوم على صوت سينا هاكوبيان  
الرقيق، وأنام على حزن سعدون جابر ولا أهتم ما هو  
الرابط بينهما، ولما تعيشهما بكل هذا القدر من  
الحاجة!..

قد لا تصدقني لو قلت لها بأنني أصبحت مثلها،  
أصبحت من أشباهها في كل شيء، بت أظفر على حبات  
من القراولة وكوب من الحليب، لا أتناول في غدائي إلا  
الخضروات المسلوقة.. ولا أكل شيئاً طبخ بغير زيت  
الزيتون.. ومع هذا أنا مثلها، لا أزال أدعى بشراة،  
وأحتسي كأساً من الخمر كل ليلة قبل أن أنام!..  
وأحاول أن أستوعب كل هذا الكم من الجون والتأقص  
الذي تعيشه وتقعمني فيه رغماً عني!..

.. اتصل بي رئيس التحرير (شخصياً)!.. ذلك  
المجوز الذي لولاه، لما كنت أنا هذا الرجل!.. لما  
كنت هذا الرجل الذي تجهله بطبيعة الحال!..

قال لي بصوت يملأ الغضب: ما أمرك يا رجل!..  
أعدت إلى حياة الصعاليك!..

- لطالما كنت صعلوكاً يا سيدي!..

- وما حكاية سيدي هذه؟ .. ألسنت من يشدق دوماً  
بأنه لا سيد له ..

- صدقني يا جهاد إن كان لي سيّد فلن يكون  
سواك!

سألني بصوت قلق: ما أمرك يا هدام؟ .. أتحتضر؟  
- فلتخبرني أولاً، لماذا تتصل شخصياً بصعلوك  
مثلي؟ ..

- توقفك عن الكتابة يقلقني! .. أجفّ مدادك  
فجأة! ..

- بل جئت دمي يا جهاد! ..  
- أقلقني يا رجل! .. فلتقابلني في المقهى المقابل  
لمبنى الجريدة بعد ساعة! ..

- سأكون هناك! ..  
وذهبت! وجدته بانتظاري يقرع قدمه على الأرض  
بسرعة كما هي عادته حينما يتوتر ..  
قال لي بصوته الأجرس: أحلّك لي يا مدمون! .. ماذا  
حدث؟

سأله وأنا أناوله سيجارة. أخبرني أنت، كيف تتحمل  
زوجتك ألفاظك البذيئة هذه؟ ..

- لا أعلم!، أظن بأن النساء يحبين البذاءة ..  
سأله مازحاً: أتعجبها مادلين؟ ..

- صدقني لست أعرف ما تحبه زوجتي وما لا  
تحبه! .. زوجتي امرأة لا يفهم منها شيء قط! ..

- أظن بأنها ضريبة أن يتزوج المرء يا جهاد! ..  
- المهم! .. دعك من مادلين الآن وأخبرني - لأول

مرة تناقش معي ما يحببته النساء وما لا يحببته! .. ما  
أمرك يا رجل! .. أوقعت أخيراً في امرأة؟ ..

- أظن بأنني أدمتها! ..  
- أي لعينة هذه التي أوقعتك يا رجل؟ ..

- لست أدري يا جهاد! .. صدقني لست أدري!  
هي امرأة دنيا! .. طيبها من الحياة كل شيء! .. لكنني لا

أعرف عن هذه الحياة شيئاً!  
سألني بدهشة: ألا تعرف اسمها؟ ..

- لا أعرف شيئاً عنها! ..  
- وكيف يعقل ذلك؟ ..

- قريب، هاه! ..  
- وكيف ذلك؟ ..

- حدثها، سمعتها! .. عاشرتها وسكنت معي لأيام

في بيتي الشتوي، لكي لا أعرف عنها شيئاً يا جهاد ولا  
تعرف عني شيئاً . صدقني لا نعرف عن بعضنا شيئاً .

- أي جون هذا؟ ..

- بل قل أي قدر هذا!

- من غير المتطقي أن لا تكون تعرفك .. أنت أشهر  
كاتب عمود في الصحافة العربية .. أي حمقاء هذه التي  
تجهلك؟ ..

- أتدري يا جهاد ما الغريب في الأمر؟ .. حينما  
تكون هذه المرأة بجواري .. أشعر بعيق الأدب .. في  
صوتها المبحوح قصائد مكبوتة . وفي عروق يديها تسري  
الكلمات .. حينما تتحدث، تنطق لحناً . وحينما  
تصمت، تصمت بخيلاء الملكات .. هذه المرأة مستحيلة  
يا جهاد! مستحيلة! أتدري، أشك أحياناً بوجودها  
فعلاً .. يحيل إليّ أحياناً بأنني أتوقم وجودها .. أكاد  
أجنّ يا جهاد! لا أدري إن كانت هذه المرأة موجودة  
فعلاً أم أنني من اختلق وجودها ..

كان المعجوز ينظر إليّ بتركيز، مستنداً ذقه إلى راحة  
يده، فقال من دون أن يرمش: ما الذي فعلته بك هذه  
المرأة يا رجل؟ .. لأول مرة أراك ترتجف! ..

- أخشى أن لا تكون حقيقية يا جهاد! .. أخشى أن  
يكون الأمر محض جنون! ..

- هوّن عليك يا رجل! .. أخبرني .. أليدك رقم  
هاتفها؟ ..

- لا أعرف لها رقم هاتف ولا عنوان بيت أو  
عمل! ..

- وكيف تلتقيان؟ ..

- يلتقي مصادفة! .. إما أن تكون في المقهى ..  
أو في المكتبة العربية أو أمام مسرح الأوبرا . إذا  
اشتفتها بحثت عنها في أحد هذه الأماكن .. وعادة ما  
أجدها في أحدها! ..

نظر المعجور إليّ ملياً ومن ثم قال بصوت هادئ:  
هذام! .. لما لا تزور طيباً ؟ ..

- أرجوك يا جهاد! لا تفعل بي هذا . لا  
تزيدني شكاً .

- تقتلك الوحدة يا رجل الغربة قاسية .. ما بالك  
إن كان المرء منا وحيداً في أرض غريبة! ..

وصمت، وصمت بدوري طويلاً لأنني أدركت أن لا



أحد مرصدتي.. وبأنها ستظل وهماً حتى يلوغ يقيناً، أو  
تقبل علي حقيقة..

\*\*\*

هي لغز، لغز لا قدرة لأحد علي فك شفرته أو  
حده لكنها عراقية!، هذا أمر لا قدرة لأحد أيضاً،  
علي أن يقنعني بغيره وإن حاولت تمويه ذلك..

في أول مرة سمعت فيها صوت سينا هاكوبيان في  
شفتي التي استأجرتها لستقي فيها، سألتها عن ذلك  
الصوت الرقيق، والذي كنت أستمع إليه لأول مرة في  
حياتي، فأجابتنني بأنها مطربة عراقية قديمة.. كنا  
متممدين فوق الأريكة. نشرب "مشروبها الخاص  
والغريب"، الشاي الإنجليزي المضاد إليه شيء من ماء  
الورد وملقحة صغيرة من الزنجبيل!..

لم يكن ينظر إلي بعضنا بعضاً، كان كل واحد منا  
يخلق مع أفكاره مرافقاً لصوت سينا الدافئ.. أخذت  
تعني معها بصوت شهيق..

زغبرة جنت وأنا صغيرون..

حيناً حرفناه بنظرات العيون،

قالوا ترى ذولا يحيون،  
من الصغر للمن يكبرون،  
مثل نجمة والقمر،  
كبر حيناً وارتدهر،  
لعيونك حبيبي تبتدي دروب السفر..

استندت رأسي إلي فخذها وأنا أمك لقد كنا  
علما نتحدث، نتحدث بلغة عربية شبه .. لكننا  
حينما نشور في وجه بعضنا بعضاً، حيناً ب أو حينما  
نكون في الفراش.. مؤن كلماتنا تخرج إنجليزية..  
وكأننا نتصل من صروشنا في ثوراتنا!.. الحمد أحياناً أن  
اتحدث بسجديني! لكها لا تقابلها إلا باللهجة البيضاء  
أو بالإنجليزية.. أو بلغة بيضاء لا تشير إلى مكان..  
لكنني أشعر في أنفاسها بابل، أشم في رائحتها سومر،  
أرى في عينيها آكاد وأستظم في ريقها آشور..!

كل هذه الأمور كانت تخمينات، مجرد تخمينات..  
لكها بدأت بالتحلي أمامي، شيئاً فشيئاً.. اعتدت علي  
أن يرافقني في "شقتنا" صوت سينا هاكوبيان، لميعة  
توفيق.. زهور حسين، سعلون جابر. ماظم العزالي

واسماعيل فروجي المكتبة التي ملأها بالكتب تزينها  
دواوين السياب، وعبد الوهاب البياتي و معروف  
الرصافي ولميعة عباس عمارة و نارك الملائكة وبلد  
الحيدري وأحمد مطر وإبراهيم عويدا.. كل هذه العوامل  
تشير إلى أنها عراقية في غاية الكلاسيكية. ١..

سألته مرة يسما كانت سبتا نشدو كمادتها، وأنا أشير  
إلى المكتبة. أليس بغريب أن يجمع وطن واحد كل  
هؤلاء. ١٩..

- أجابت بيروود: وما الغريب في ذلك. ١٩..  
- إنهم سنة، وشيعة. أرمن أكراد، عرب، صابئة  
ويهود ومسيحيون. ١٩..

- في داخل كل إنسان وطن خاص به! الإنسان لا  
ينتمي إلى رقعة.. الإنسان ينتمي إلى دواخله..  
- لدواخله فقط؟

- أنا وأنت لا ننتمي إلا إلى دواخلنا فقط.  
- أندرس بأن صلاتك غريبة ١٩.  
- أين الغريب أن أصلي ١٩..  
- بل صلاتك ذاتها غريبة، طقوس صلاتك..

طريقته.. كيميتها كلها غريبة!.. لم أر أحدا يصلي  
يطقوسك هذه!..

- قالت بسخرية: أنا على يقين من أنك لم تفعل! .  
- سألته صلاتك تؤكد بأنك مسددة، لكك لا  
تصلين كالتسنة ولا كالشيعة.. إلى أي مذهب إسلامي  
تنتمي؟!..

- ألم أقل لك بأننا جميعاً ننتمي إلى دواخلنا ١٩.  
- يقال بأن الدين هو طريقنا إلى دواخلنا .  
- ظننتك لا تؤمن بالأديان!.

- قلت بأنه يقال، لم أقل إنني أؤمن بهذا.  
أشعلت سيجارة وأخذت نفساً طويلاً، سألتني: أنتظن  
بأن الحب خطيئة ١٩

- واسمي الأعرج أفنى بأن "الحب هو المعصية  
الوحيدة التي يغض الله عنها الطرف" وأنا أريد هذه  
العتوى..

- أيؤخذ بفتاوى الأدباء ١٩..  
- أنا شخصياً لا أحمل إلا بفتواهم..  
- قل لي، لماذا أنت غاضب من الدين ومن القانون؟  
- لأن بقاياهما لا تزال في نفسي، لكنني حينما

التفتيتك تغير كل شيء... انطعاً فطبي، وكأنك خمستني  
في نهر اليبخ فخرجت منه وكأني لم أؤذ يوماً...  
- أفعلت بك هذا؟..

- بل خلقتني من جديد، علمتني في ماء بلا دين...  
طهرتني من بقايا الأديان العالقة في نفسي، جعلت مني  
رجلاً دينه أنت ولا دين له سواك...!

- ألم تنفق على أنا لا تنمي إلا إلى أنفسنا فقط؟  
- الانتماء!، أخبريني أنت... ماذا يعنينا  
الانتماء...؟..

- أظن بأنه يخلق لدينا "أحياناً" مساحة صغيرة من  
الأمان.

- الانتماء إلى الأوطان، الأديان، العشائر،  
العائلات، القوايين... ليس سوى قيد بقيدنا... قيد يجعل  
حياتنا أصعب وأكثر تعقيداً...

- ألم ثقل بأنني أصبحت فينك...؟.. أنت بهذا  
تنمي إلي...! أتلعن انتماءك إلي...؟..

- بل ألعن كل انتماء لسواك...!..  
- قالت مبتسمة، أندرك كم تجيد الحديث يا  
رجل...!..

- أندركين كم تفتحين شهتي على الحديث؟..  
ابتسمت هي، أما أنا فقد ضمت في تفاصيل  
الابتسامة!..



حينما جئت إلى لندن قبل قرابة التسعة عشر عاماً...  
جئتها هارباً من كل شيء... من أن يشارك عشرات  
الأشخاص في صنع قرارٍ رغماً عني... غادرت  
الرياض في قمة الغليان السياسي والعسكري... أثناء  
حرب الخليج وقبل تحرير الكويت بقرابة الشهرين،  
شعرت وقتذاك بأن القومية والقبلية والدين ما هي إلا  
أكاديب، أنا الذي كنت قومياً حتى النخاع...!.. والذي  
قضى قرابة ربع قرن من حياته مؤمناً بها... كنت شاباً في  
السادسة والعشرين... أخطني حظواتي الأولى والتجولة  
في عالم الكتابة، بعد حصولي على شهادة الماجستير في  
الصحافة والإعلام... كشت وقتذاك ممتلئاً جداً بالحب  
لكل شيء ولكل الناس، كنت وفياً جداً لوطني، فخوراً  
بديني، متعصباً لجنوري العائلية وللقبيلة، كنت الابن

البار لكبار العائلة. كنت باختصار النموذج المثالي للشباب السعودي المتعلم والمتدين والمتمسك بالعادات والتقاليد.. حتى تعرفت على ليلي..

ليلي كانت زميلتي في الصحيفة، من رعبل الصحفيات الأوائل في السعودية. كانت فكرة أن تمارس المرأة الصحافة في ذلك الحين خطيئة يعاقب عليها المجتمع بكل ما يمكن أن تعاقب به امرأة في مجتمع كذلك الذي كان عليه!.. لم تكن تصفني ليلي بكثير، كنت أكبرها بثلاثة أعوام فقط. لكن أن تواجه فتاة في الثالثة والعشرين مجتمعاً ذكورياً متزماً كالمجتمع السعودي كان برأيي محاولة انتحار - ناجحة - 1. لكن ذلك لم يمنع ليلي من أن تقاتل من أجل الحرية ببسالة لا تتوقع من فتاة سعودية في زمن كذلك.

مرور ليلي لم يكن في حياتي عادياً، أعرف اليوم بأن لقائنا قد غير مجرى حياتي كلياً.. معرفتي بها أدت إلى أن أكون ذلك الشخص الذي أصبحته الآن، الاصطدام الذي حدث بيننا منذ اللحظة الأولى التي التقينا فيها في أحد أروقة الصحيفة أدى إلى أن تنقلب ميادني وقناعاتي

رأساً على عقب، وإن كنت قد قاومت ذلك الانقلاب كثيراً..

ليلي كانت نابضة بالحياة، لم تكن كأني فتاة.. كانت محتلمة بكل المقاييس.. لم يكن جمالها صارخاً، لكنها كانت شهية بعفويتها التي 'سليت' قلبي منذ حوارنا الأول والذي لا أزال أذكره بتعاصيله الصغيرة.. كنت يومها متوجهاً إلى خارج مبنى الصحيفة حينما صادفتها في الممر المؤدي إلى الخروج... أذكر بأنني استغربت من تواجد فتاة في المبني. كانت محجبة فقط، لم تكن تعطي وجهها الصغير، وقد كان هذا أمراً نادر الحدوث في ذلك الوقت - إن استثنينا المجندات الأمريكيات - بطبيعة الحال..

استوقفتني ليلي أثناء مروري بها، قالت لي مستفسرة: عفواً!، هل أنت هذام العاصم؟  
- أجبتها مندهشاً: نعم!.. أنا هو..  
- قالت وهي تعدل من نظارتها الطيبة. تقريرك الأخير كان رائعاً..  
- سألتها بدهشة: هل جئت من أجل التقرير الذي أعدته؟!

- كلا بكل تأكيد، أما ليلي زميلتكم الجديدة..

- زميلتنا الجديدة..

- سألت بسفيرة: قريب؟..

- قلت لها شيء من الإحراج. أما لم أقل هذا!..

- قالت متهمكة: أجل أكيد حرام.

- شعرت وقتها بأنني أنز عرقاً... قلت لها بارتباك

من يتعامل مع المرأة لأول مرة: ما الذي تريدته مني بالضبط يا أخت ليلي..

- لا تعاملني بعنصرية واستعلاء.. نحن رملاء هنا..

وتساوي حقوقنا..

- وماذا أيضاً؟..

- هزت كتفها قائلة ببساطة: بقية الأمور تأتي

لاحقاً.. سنتقي قريباً.. إلى اللقاء..

وتركتني واقفاً أنظر إليها مشدوهاً، وهي تخطو

بخطوات أدرك اليوم بأنها لم تكن عشوائية أبداً..

لقائي الأول بليلى لم يكن صدامياً بالمعنى

المعروف.. لأنني لم أجادلها يوم ذاك على الرغم من

هجوميتها التي قابلتني بها. شيء ما أنبأني بأن هذه

الفئة ستترك في حياتي أثراً لا ينسى، لذا حينما قابلتها

لاحقاً في أحد الاجتماعات مع رئاسة التحرير لم أتمكن من أن أعاملها إلا بالكثير من اللطف والإصغاء ومحاولات التفهم! كانت الصحفية الأولى والوحيدة التي تعمل في جريدتنا، وكان وجودها محل استهجان من كل العاملين على الرغم من تقاربها المميرة، وعلى الرغم من أنها لم تكن تلك العنزة الضعيفة، إلا أنني شعرت بأنها بحاجة لمن يساعد حقها في المشاركة بالحياة قبل العمل الصحفي. فدامت عنها في اجتماعنا الأول حينما أشار أحد زملائنا بصورة غير مباشرة إلى أن المرأة التي تغادر منزلها لتزاحم الرجال في أعمالهم لن تكون إلا امرأة من اثنتين، إما أن تكون ساقطة، وإما أن تكون مسترجلة والعياذ بالله!..

أذكر بأنني قاطعته بأن: كل بناء بما فيه ينصح.

ويأتينا نحكم على الآخرين بناءً على أخلاقيتنا..

ومع أن ما قلته قد كلفني الكثير من الصداقات،

حيث حسرت يومها مولاة الكثير من زملائي الذين رأوا

في رجلاً شهوانياً يهاجم رميله دفاعاً عن ساقطة، إلا

أنني كسبت ليلي ومعني يوم ذاك. يوم ذاك أدركت بأن

المرأة في بلادنا محاربة من دون وجه حق.. فأخذت



على عاتقي مسؤولية مساندتها في الحصول على حقوقها أو عدم المشاركة في محاولات قمعها على أقل تقدير، وقد كان ذلك برأيي أضعف الإيمان!..

قالت لي ليلي بعد انتهاء الاجتماع وحين مغادرتنا. شكراً للدعم يا هذام، يجي منك والله!..

شعرت حينها بالدماء تتفجر في وجهي خبيلاً، قلت لها: أنا لم أدامع عنك بعينك، كان دفاعي عن المرأة على وجه العموم!..

- صدقتي لو كان دفاعك عني لما أسعدني!.. ما أسعدني حقاً هو أن تثور لأجل المستضعفات.. وهذه إشارة جيدة فعلاً..

ولا أدري فعلاً لما بررت لها دفاعي عنها وقتذاك، ولما تنصّلتُ هي من سعادتها بدفاعي عنها.. أظن بأننا خفنا من أن يبرر هذا داخل أعماقنا عاطفياً. من جهتي، ظننت بأن هذا سيشعري بسوء مبتغاي الذي لم يكن له وجود حينذاك، وأظن بأنها خافت من أن أسر سعادتها بدفاعي عنها كما يفسر رجالنا عادة مشاعر النساء.. بقي مجتمعنا كل امرأة ساقطة حتى تثبت العكس!..

لم ألتق بليلى كثيراً بعد اجتماعنا الأول، لكنني كنت

أطلع على التقارير التي كانت تملأها، والتي كانت تُرفض كمادة للنشر في أغلبها نظراً لجرأة الطرح والمواضيع... لم يكن من السهل على أحد ما أن ينكر مدى عبقرية ليلي وتميزها - ييه وبين نفسه على الأقل -، كانت ليلي تجيد ممارسة الصحافة بمطرتها.. كانت ذكية، مجتهدة، نشيطة، لياحة وتجيد متابعة الخبر وشراء..

بدأت ليلي تستعمرني فكراً، بدأت قراءاتي تتغير، وشيئاً فشيئاً بدأت أفكارني القديمة تنهار تحت وطأة التعبير.. أصبحت أتعاطف مع النساء، وبدأت رحلتي الطويلة في البحث عن الحب، الإنسان، الإيمان والوجود..

بسبب ليلي تغيرت فتعاني كثيراً وتبدلت مفاهيم الحياة لدي.. صدعني كثيراً أنني كنت، لأكثر من ستة وعشرين عاماً، رجلاً سطحي التفكير، على الرغم من شهاداتي الجامعية المتقدمة، إلا أنني كنت رجلاً تقليدياً بسيطاً يحكم على الأمور من خلال رؤيته السطحية لها..

في تلك الفترة، بدأت أتوغل في عالم الفلسفة.. فتعرفت في البداية على أرسطو، هيجل. أفلاطون

وسفراط.. لم يكن من السهل عليّ في ذلك الوقت الحصول على كتب عن غيرهم من الفلاسفة في الرياض التي كانت تكهر المهتمين بالفلسفة.. كذلك لم يكن في محيطي من يهتم بالفلسفة بشأن، لذا سألت ليلي في اجتماعا الثاني إن كانت تعرف من أين أحصل على تلك النوعية من الكتب.. كانت سعادة ليلي عامرة بسؤالي أظن بأنها عوّلت على سؤالي كثيراً.. فزودتني بعدها يومين بمجموعة كبيرة من الكتب.. ومن هنا بدأ مشوار الانعتاق، ومرحلة التسامي وبدأت علاقتي بيلي تأخذ منحى آخر..



بدأت علاقتنا في أبريل 1990م قبل الحرب التي اندلعت فجأة، والتي شوّهت القومية في داخلي مثلما عززتها لدى كثيرين.. كانت قناعاتي قد بدأت بالاهتزاز منذ أن تعرفت على ليلي، وجاءت الحرب فتزلزل كل شيء في أعماقي.. واتقلب كل قديم رأساً على عقب.. لم تكن ليلي مختلفة عني فحسب بل كانت متحررة

من كل شيء عدا إنسانيتها.. لم يكن لها أي قيد، كانت حرة حرة تماماً.. وقد أذهلني هذا التحرر، فاعتنقته ولم أعتنق شيئاً من بعده..

أعرف اليوم بأن المرأة هي طريق الرجل إلى الحرية، وحدها المرأة قادرة على أن تحررنا من عبوديتنا.. على الرغم من أنها وحدها أيضاً من يقدر على أن يستعبدنا.. هذه هي معادلة الحياة المعقدة التي لن يقدر أحد على حلّها.. المرأة هي لغز الحياة، سرّها ومازقها الأصعب الذي لا يفهم..

كنت أقضي ساعات طوالاً على الهاتف مع ليلي التي كانت تملك خطأ هائلياً خاصاً بفروقتها، ولم يكن هذا الأمر عادياً وقتذاك.. فأنا نفسي كنت أستخدم الخط الهاتفي الخاص بمنزل عائليتي والذي كان يشارك فيه قرابة السبعة أفراداً..

لم تكن علاقتنا علاقة تقليدية، لم تكن كأي علاقة بين رجل وامرأة في مجتمع كمجتمعنا، لم تجمعنا الشهرة ولا الحب في البداية.. الحياة هي التي جمعتنا، تساؤلنا شكوكنا.. أحلامنا ومحاولة الوصول إلى يقين ما في هذه الحياة.. إلا أنني أحببتها كثيراً..

كنت أشعر بأنني أغرق في بحرها تدريجياً يوماً بعد يوم.. حواراً تلو الآخر.. لم يكن من الصعب على امرأة كليلي أن تفرق رجلاً مثلي حتى شعر رأسه.

مع مضي سنوات على اشتراقتنا، وعلى الرغم من مرور الكثيرات في حياتي خلال قرابة العقد، إلا أنني أكاد لا أذكر سوى أسماء من عرفتهن فقط.. ما عدا ليلي!. ليلي هي التي لم أنس شيئاً يخصها.. ولا أدري حتى الآن إن كنت أذكر تفاصيلها لأنها كانت فعلاً استثنائية أو لأنها كانت المرأة الأولى في حياتي... وعادة، الرجل لا يسي أمراًه الأولى مهما مرّ في حياته من نساء..

ظللنا أنا وليلي على علاقة حتى سبتمبر من العام ذاته... كان قد مضى على علاقتنا قرابة الستة أشهر، وقد كانت كافية بالسبب لي لأن أقرر الارتباط بها. ظننت في البداية بأنها ستقاوم فكرة الزواج هذه لفترة، إلا أنها أبدتها ثاماً وسعدت بها كثيراً.. فشعرت وقتذاك بأنني امتلكت الدنيا، بأنني اجتزت الحياة، ولم أكن أعرف بأن فكرة الزواج تلك كانت مأزق حياتي الأكبر الذي لم أخرج منه يوماً..

بعض الأحداث والحوادث التي نمرّ فيها تعيد تشكيل حيواتنا من جديد، نشعر بعدها وكأننا ولدنا أشخاصاً آخرين، أشخاصاً لم يعودوا يشبهون أنفسهم! وقد كانت ليلي حادثة العمر الأشنع الذي خلّف في روحي ندوباً لم تمحّ حتى الآن..

لا أدري كيف غاب عن ذهني كليباً اسم ليلي الأخير، أنا القليل جداً والمتعصب للقبيلة أكثر من أي رجل آخر، لم أفكر في اسم عائلتها ولا عن إمكانية أن تفتن أسماؤنا الأخيرة.. ولا أدري كيف حدث هذا!.. أظن بأننا نفقد في الحب القدرة على تمييز الأسماء، فلا نذكر ولا نكتثر إلا لأسمائنا الأولى.. وأعرف اليوم بأنني قد دمت ثمن هذا النسيان وطأ وعائلة وعقدين من الزمن..

لم تكن ليلي تناسني "قبائلاً".. وقضية القبائلية هذه هي المأزق العاطفي الأكبر الذي لن يتمكن أحد من الخلاص منه إن وقع فيه.. هذه القضية لا حل لها مهما أمطرت السماء من معجزات.. لكن الحب يجعلنا تمسك بسراب الإمكانية، بوهم المعجزة.. الحب يجعلنا نتأمل حتى نموت أملاً والماء، ولم تستثني السماء من

هذا الألم لأبني لم أعتك عن الأمل في أن تحدث معجزة..

لم يكن صدامي بعائلي عدياً، لم يمر علي ولا عليهم مرور الكرام.. في حياة كل فرد منا قصة تفصم ظهر البعير . لكن خلافي مع عائلي لم يكن كذلك، لأنه لم تكن لدي سوابق خلافة مع أحد منهم. كانت ليلى طليبي الوحيد، كانت الطلب الأول والأخير الذي لم يتحقق، فشرت كما لم يفعل أحد . قاومت العائلة والقبيلة وأقرب الناس إلي حتى تجاوزنا مرحلة الحلاف إلى مرحلة اللا عودة! وصلنا إلى مرحلة أن أختار . وإما هم وإما هي . ! وما أقسى أن تختار بين من تحب ومن تحب، لكنني اخترتها صدقاً وبكل اقتناع.. وتخلّيت عن كل ما يربطني بعائلي التي توخّشت.. توخّشت جداً علي! لكن هذا لم يشفع لي عند عائلتها.. لم يقبل والدها بأن يضع ابنته في هذا الجحيم الذي كنت أدرك أيضاً بأنه لن ينقضي يوماً ما، ولا قدرة لأحد علي أن يقف في وجه قبيلة ثائرة مهما تدرّع ومهما احترر ومهما دعم..

لا أزال أذكر الليلة التي تحدثنا فيها أنا وليلى لأخبر

مرة في هذا الموضوع، قالت لي: إسمع يا هدام! أنا على استعداد لأن أقتع أهلي برواجنا، لكنني أحتاج لأن تؤكد لي التزامك معي.. إن كنت تشعر بأنك ستتهزم في المحطات الأخيرة فلا تصعني في هذا الحرج، لأبني لي أسامحك علي هذا ما حيت..

والحق بأنني خشيت كثيراً أن أفعل!.. على الرغم من كل الحب الذي كنته لليلى.. وعلى الرغم من تفاقم صراحي مع عائلي إلى درجة أنني طردت من المنزل وقوطعت حتى من والدي.. إلا أنني كنت أشعر في أعماقي بأنني سأجبر! شيء ما أشعرتني بأنني غير قادر على أن أتجرّد منهم.. كنت أضعف بكثير من أن أقاوم حملة كنتك التي شنت علي.. كنت يافعاً، قليل التجارب، مسالماً.. ولم تكن الحياة قد لاكتني بعد

خشيت علي ليلى كثيراً، خفت عليها من تلك الحروب . كانت لها أحلامها وكان بانتظارها مستقبل باهر فخشيت أن تعرق حياتها بسببي، لذا رغبته بأن أتنازل عن سعادتي وأن أتعلّى عنها مكرهاً ولم يكن في الإكراه أي هراء.. لا لي ولا لها..

أدرك جيداً بأن تركي لليلى لم يشفع لي كثيراً عند

عائلتي، لكنهم حاولوا أن يدعوا ذلك حتى لا يحسروني، فتعاونني فكرة الزواج السابقة. كنت أدرك بأن احتضانهم لي مجدداً ما هو إلا محاولة منهم لتحدير رغبتني بالزواج من ليلى، باتوا يعاملوني وكأنه لم يخلق لهم غيري!.. وقد كانت تلك المحاولات تجلب لي الكثير من مشاعر الازدراء تجاههم. بئ أشعر بزيغ مشاعرهم.. شعرت وكأن شيئاً أنكر يساء. وكنت أعرف بأنه لا قدرة لشيء على إصلاحه من جديد..

طلبت مني ليلى أن أتأسي ما حدث، وأن نتعامل مع بعضنا كصديقين. إلا أنني أخذت إجازة من عملي لمدة شهر وانقطعت عنها تماماً.. لم أكن قادراً على أن أكلّمها أو أن أراها. لم أتمكن من أن أتجاهل ما حدث، ولا أن أفهم كيف يتوقع من رجل أن يقدر على مصادقة امرأة اشتهاها يوماً!..

كنت في حالة لوعة، لازمت البيت ولم أتمكن من مغادرته خلال فترة الإجازة. كنت أفكر فيما ستكون عليه الحياة من دون ليلى.. كيف سأجنب رؤيتها.. وكيف سأمضي في حياتي بعيداً عنها.. كانت تطرح في

رأسي مئات الأسئلة، ولم تكن هناك أجوبة عليها.. فأزقتني وزادتني لوعة.. حتى اتصلت ليلى علي!.. كان اتصالها الأخير، في الخامس من نوفمبر 1990 م.. وقد كانت الساعة تقارب الرابعة فجراً. سمعت صوت الهاتف.. لكنني أدركت بحس العاشق أنها هي!.. فركضت إليه بخطوات ترتجف ويقلب يلهث..

- قالت لي بصوت حلو: همام!.. أنا ليلى

- أجبتها بصوت يخ من العصة: وهل ظننت بأنني قادر على نسيان صوتك..!؟..

- همام دعك من هذا الحديث!.. أحتاج لأن تسليني معروفاً!..

- كلي لك.

- لا بد من أن تعرف بأن ما سأقوله لك في منتهي السرية والمحطورة!..

- قلت لها يتوجس ويلهث: أنا متصت!..

- أريدك أن تعدني في البداية أن لا يتجاوز هذا الحديث أحداً غيرنا يا همام!..

- قلت لها وقد بدأ القلق ينسرب إلي: لست بحاجة إلى هذا الوعد يا ليلى، لكنني أعدك بهذا!..



- زفرت بقوة: حسناً!.. إسمعني جيداً يا هدام..
- "رغز" معي!.. لأنني أحتاج إلى تركيزك التام..
- حسناً!..
- ستخرج خدأ في مظاهرة سائية، سيشارك فيها
- عشرات النساء من الأكاديميات والطالبات وربات
- اليوت.. ونحتاج إليك في هذه المظاهرة.
- قلت لها بدعشة: ماذا تعنين بمظاهرة هنا؟!
- مظاهرة سلمية، نطالب من خلالها بحقنا في
- القيادة!..
- قيادة ماذا؟!..
- قيادة السيارة.
- لم أفهم!..
- سنقود سيارتنا يا هدام، ونحتاج لأن تصور لنا
- هذا الحدث..
- لا بد من أنك تترحمين!..
- وهل في هذا الأمر هزل؟!..
- أتدركين ما أنت مقدمة عليه؟!.. أتدركين ما قد
- يكنفك أن أقدمت على هذا الأمر..!..
- لا حرية بلا ثورة يا هدام..

- هذه ليست ثورة، هذا انتحار..
- قالت ساخرة: فلنقل بأنه استشهاد!
- لا يا ليلي، أرجوك لا تفعلني هذا.. أنت لا
- تدركين ما قد يصيبك نتيجة لهذا الجنون..
- لا قدرة لي على الانرواء جيئاً كما فعلت أنت يا
- هدام!.. أنا امرأة قادرة على أن تناضل من أجل حقوقها
- ومن أجل حريتها.. ومستعدة لأن أدمع ثمن هذا!..
- قلت لها باستسلام: وما الذي تريدته سي يا
- ليلي!..!..
- أحتاج إلى مساعدتك يا هدام. نحتاج لأن يسجل
- أحد هذا الحدث بكاميرا الفيديو ولا ثقة لي بأحد
- غيرك.. أخشى أن تطلب أي واحدة منا هذا من أي
- رجل آخر، فيتسرب الخبر قبل بدء المظاهرة ونمنع من
- القيام بها..
- وهل ظننت بأنكن لن تمنعن من ذلك؟!..
- سمنع من إكمالها، لكننا لن نمنع من بدئها إن
- ساعدتنا في هذا!..
- قلت لها وأنا أنز عرقاً: أسأكون الرجل الوحيد
- المشارك؟!..

- أولاً، أنت لن تشارك، أنت ستسجل المسيرة فقط.. ثانياً . الكثيرون من أزواج المشاركات سيتبعونهم بسياراتهم، لذلك، لا تخش شيئاً..

- قلت لها بامعال: هذا مخالف للقانون يا ليلي.

أنت لا تدركين ما قد يترتب على هذه المظاهرة..

- قالت بحزم: هدام.. لقد طلبت منك معروفاً فإما أن تسديني إليه، وإما أن تنسى الموضوع تماماً، وكأننا لم نتطرق إليه أبداً، وأن لا تفصح به أحداً كما وعدتني .

صمتُ قليلاً، كنت أثناءها أفكر بليلى.. بهذه الشجاعة التي تحدث عنها صعباً وخوفاً كنت أفكر في ثورتها، في جرأتها.. في محاولتها لتحقيق أهدافها مهما كلفها الأمر كانت ليلي تقيضي المقدم الذي كنت أدرك بأنني لن أشابهه يوماً

- قلت لها وقد جزمت أمري: فليكن.. سأفعل هذا من أجلك..

- هدام، لا بد من أن تعرف بأن المظاهرة سلمية، لكنها قد تنتج عن غير ذلك.. لا أحد منا يعرف ما قد يحدث عدداً..

- المهم أن تدركي أنت ذلك يا ليلي..

- أدركه جيداً، لذا أخبرك بهذا..

- حسناً يا ليلي، سنقدم على هذا معاً.. سأقوم

بالصوير من أجلك..

- بل من أجل مجتمعك يا هدام، من أجل

المساواة من أجل شقيقاتك ووالدتك وبناتك اللاتي سيجهن يوماً..

- بل من أجلك يا ليلي، تدركي دوماً بأنني فعلت

هذا من أجلك..

لم أتم نيتها، كنت أدرك بأن السادس من نوفمبر قد

يخير من سير حياتي، قد يريدنا تعقيداً، وقد ينتهيها..

لكسي حاولت طرد تلك الأفكار من رأسي لأن رغبتني

الحادة في أن أقوم بأي شيء ليلي كانت أقوى من

مشاعر الخوف والتردد أو أي مشاعر أخرى..

أعددت كاميرا التسجيل، شحنتها بالكهرباء.. وظلمت

أفكر طوال الليل فيما سيكون عليه الغد كنت مشحوناً

بالمشاعر حتى أخري، كان هاجسي الأول هو ليلي..

حشيت عليها أكثر مما حشيت على نفسي، كنت أفكر

فيما سيلحقها وفيما سيؤدي إليه جنونها ! لم اكن  
أعرف عما هو مخطط له . كل ما عرفت أنه سأتابع  
ليلي بسيارتي وبأن نقطة لقاءهم ستكون في الملر . كنت  
أدرك تماماً بأن الحدث صرب من ضروب الانتحار  
الاجتماعي الذي بدا لي بأن ليلتي لم تستوعبه كما  
يتبغي ! لكنني وعلى الرغم من ذلك، ومع إدراكي التام  
بأن تصوير المظاهرة سيؤدي إلى ما لا يحمد عقباء ..  
وبأنه سيطولني ما لن يطول الفتيات " أمنياً " لأنني الرجل  
بيهن ! إلا أن ذلك لم يجعلني أتوانى عن أن أتوجه  
إلى بيت ليلي في الوقت الذي اتفقنا عليه ..

توجهت إلى بيتها مسلحاً بحبي لها وبكاميرتي  
التواضعة، مدفوعاً برغبة ماسة للتعويض، لتعويضها ..  
فأنا أدرك اليوم بأنني لم أفعل شيئاً مما فعلته إلا لأن  
مشاعر التأنيب كانت تهشي كنت أظن بأن إقدامي على  
تلك " الحماقة " ستشفع لي عند ليلي، وستمحو لديها  
ذنبي جبني . فأتخلص من ذنبي خذلانها بمساعدتي  
لها .

أوقفت سيارتي أمام بيت ليلي، كنت أرتجف  
انفعالاً . مرّ كل شيء بسرعة خارقة منذ اتصالها بي

وحتى وصولي إلى بيتها وكأني في حلم سريع لا قدرة  
لأحد على استيعابه إلا بعد انتهائه ! ..

انتفست حينما رأيت ليلي خارجة من منزلها مع فتاة  
أخرى، رآني وأشارت لرفيقتها بأن تركب السيارة وأقبلت  
عليّ، ترجلت من سيارتي ما إن اقتربت . بادرتني قائلة:  
ها قد جئت يا هلام ! ..

- وهل ظننت بأنني لن أجيء ! ..

- الحق بأنني ظننت هذا .. تاريخك معي لم ينشئ  
بمجيئك !

- أرجو أن يعوّضك هذا عن بعض مما حدث .

صمتت قليلاً، ومن ثم مدّت يدها ممسكة بذراعي  
قائلة: شكراً هلام ! .. أفكر لك هذا ! ..

حينما جلست ليلي خلف مقود السيارة، شعرت بأن  
قلبي يكاد أن يقف .. تقافزت في رأسي آلاف الوجوه  
الملتحية وهراواتهم والعمات من أصفاد رجال الأمن .  
كشّر القانون عن أنيابه في دعني فشعرت بشجاعتي  
تضائل وتضائل وتضائل ..

كان المشهد جنونياً ! .. رؤية سيارات الفتيات وهي  
تنضم إلى الركب سيارة خلف أخرى كان مهيباً .. وجوه

الركاب المذهولة في السيارات العابرة زادني رعباً .  
رأيت أمامي إحدى السيارات الممتلئة بالشباب وهم  
يحاولون مضيفة الفتيات وإغصهن على إيقاف السيارة  
والزول منها . حينها وحينها فقط . أدركت بأن الأمور  
ستزداد سوءاً وبأنها لن تنتهي على غيراً .

حاولت أن أدير الكاميرا بيد ترتجف، إلا أن رؤية  
سيارات الشرطة جعلتني أخبئها تحت مقعدي . أحاطت  
سيارتان من سيارات الشرطة بموكب الفتيات، وقادوهن  
إلى مركز شرطة الحي .

تبعتهن حتى وصلنا إلى المركز، ورأيت الفتيات  
يتجهن من سياراتهن ويتجهن إلى داخل المبنى . لم  
أكن أعلم ما يتوجب عليّ فعله! . لم أكن قد تمكنت  
من تصوير المسيرة ودحولي خلف ليلى إلى المركز  
سبعي عشرات القصايا التي لا قدرة لأحد على تخمين  
عقوباتها ابتداءً من المشاركة بتنظيم مظاهرة مروءاً بزعزعة  
الأمن وانتهاءً بمصاحبة فتاة غريبة! . كما أن إيقافني  
للمسيرة بالقرب من المركز لفترة طويلة كان سيثير  
الشبهات الأمية . فعدت إلى بيت ليلى بلا خطة

محددة . وقفت أمام بيتها لأكثر من نصف ساعة مفكراً  
فيما سأفعل! .

استجمنت شجاعتي وقرعت الجرس . ففتح لي  
والدما الباب . كانت دهشته برؤيتي عارمة . لكنني لم  
أمهل من الوقت شيئاً ليفكر في أسباب قدومي . قلت  
له بأن أحد المصادر الصحفية قد اتصل بي وأبلغني  
بوجود ليلى في مركز الشرطة لمشاركتها في مظاهرة  
نسائية مع العشرات من الفتيات . لا أزال أذكر حتى  
اليوم ملامح وجه والدما الذي ظننت بأنه كان على دراية  
بما تحطط له ابنته التي نشأت في بيت متحرر وعائلة  
منفتحة إلى أقصى درجة! . لم أظن، ولو للحظة، بأنها  
أقدمت على المشاركة بالمظاهرة من دون علم عائلتها  
لأنني كنت أعرف تماماً بأنها لا تقدم على شيء من دون  
معرفةهم به . حتى علاقت القصيرة كانوا يعرفون عن  
تفاصيلها منذ أيامها الأولى! .

كان والدما في حالة ذهول، ولم تزديني حالته تلك  
إلا ارتباكاً . كما أنا وهو سطر إلى بعضنا بعضاً بقلة  
حيلة . وهو يتساءل (كيف، متى . أين . لنا لم  
تحبرني . لماذا فعلت هذا . ما العمل . أين

لذهب. ).. اقترحت عليه أن يتصل بأحد أحويتها الشباب وأن يتوجه معه إلى مركز الشرطة في أقرب وقت ممكن..

وعدت إلى البيت، أجزأ أذبال الخذلان مجدداً..

كانت تلك الليلة، أطول ليلة مررت بها في حياتي.. حاولت الاتصال ببيت ليلي عدة مرات راجياً من الله أن تردّ عليها. لكن رنين هاتفي بيثها لم يصمت، استمر صدها يتردد.. لم يسكت أبداً ولم يكن هناك من مجيب..

تسرب خبر المظاهرة كالتار في الهشيم، لم تمر ساعات حتى عرفت كل الرياض بما حدث.. وبدأت الأسماء بالتسرب اسماً اسماً في مدينة فضائحية تجيد تزيف الحقائق كما لا تعمل أي مدينة أخرى، أما أنا فقد كنت متروياً في غرفتي أرقب الهاتف الممتد من صالة بيتنا وأنا أناجي الله أن تتصل بي وأن تمر الأزمة بأقل قدر من الحسابات..

شعرت بقلبي ينفز حينما ارتفع رنين الهاتف، كان المتصل أحد زملائنا في الصحيفة.. طلب مني أن أطلع على قناة الـ CNN بسرعة، أغلقت معه، وفتحت على

القناة التي كانت تعرض بعض المشاهد من المظاهرة. والتي لم أعرف وقتها كيف حصلت القناة عليها.. وعلمت بعد ذلك أن مصوراً عظيماً وشاعراً مبدعاً هو من تمكن من تصويرها ومن دفع ثمن ذلك لاحقاً..

الحق أن مشاهدة ما حدث مجدداً على شاشة التلفاز أكد لي بأن الحدث لن يمر مرور الكرام، خاصة وأن توقيته كان في متهى الحساسية السياسية، حيث كانت كل الأنظار تتوجه إلى السعودية في ذلك الوقت. لذا قضيت ليلتي محاولاً تجميع أكبر قدر من المعلومات عن مصير الفتيات... استعنت بالكثير من الصحفيين ومن أصدقائي في وزارة الداخلية.. لكنني لم أصل إلى أي نتيجة لتضارب الأنباء..

ليلتها وليلتها فقط، بدأت أفكر في حياتي وفي مصيري جدياً!.. فكرت في الحياة التي أعيشها وفي المجتمع الذي يحيط بي رغماً عني، استرجعت خسائري العادة. وأخذت أفكر بما سأعمره في قادم أيامي.. كنت أعرف بأن لا شيء ينتظرنني في مجتمع كذاك المجتمع. لا قدرة لأحد على أن يعيش حراً في تلك



البيئة المستعبدة اجتماعياً، مجتمعنا هو أكثر المجتمعات  
مازوشية.. يتلذذ بجلد نفسه يستمتع باستعباد أفراد  
لبعضهم بعضاً ولم أكن لأقبل بأن أكمل حياتي في  
تلك الأرض التي أعرف اليوم بأنها لم تحبني يوماً..  
ليتها، شعرت بأنني أفقد انتمائي لكل شيء.. للوطن  
الذي لم يحبني أبداً. للعائلة التي قدمت رخصاً القبيلة  
على سعادتي، للقبيلة التي حرمتني من أن أرتبط بفثاتي  
التي أحب بمنهجية قصوى..

بقيت تلك الليلة مستيقظاً، بانتظار أن تجود عليّ ليلي  
بأي خير.. لكنني لم أتلقَ ليّتها إلا مكالمات زملائنا من  
الصحفيين والذين كانوا يتسابقون لينقلوا لي خبر مشاركة  
زميلتهم المكروهة أصلاً والمحاربة من قبلهم.. هبط  
خبر احتجاز ليلي على زملائنا كهدية من السماء، كانوا  
شامتين، يحتلقون الأخبار كالسوسة الأميات.. ولم يكن  
للمصادقية في تلك الليلة أي حضور يذكر.. فازداد  
كرهي لكل ما يمت إلى مجتمعنا بصلة!.. كرهته حتى  
آخري..

انهار جسدي المكدود الذي لم يلق طعم النوم

للليتين متواصلتين، فغفوت قليلاً.. كنت ما بين عالمين  
حينما اتصلت ليلي.. وقد كانت الساعة تقارب العاشرة  
صباحاً..

بادرتني بصوت مرهق: صباح الخير يا هدام..!  
صحت بها بصوت يكاد أن ينقطع ثعباً ليلي!.. أين  
أنت الآن.. وماذا فعلوا بك..!؟..

- أرجو أن لا تصرخ يا هدام حتى أجيب عن  
أسئلتك، فأنا لم أتم منذ ليلة البارحة ولا يزال الصبح  
يملا رأسي حتى يكاد أن يفجر.

- أخبريني، أين أنت الآن..!؟..

- أنا في البيت يا هدام، لا تخش عليّ..

- أنت بخير!؟..

- أنا بخير، لكنني مرهقة للغاية

- ماذا فعلوا بك!؟..

- لم يفعلوا شيئاً يا هدام، اتصلوا بأولياء أمورنا..

وجاءوا لاستلامنا.. وكأننا طفلات أو سفيهات!..

- أنا آسف لأنني جئت إلى والدك يا ليلي، لكن

تفكيري لم يقنني إلا إلى هذا الحل!.. خشيت عليك

كثيراً فوجدت نفسي أقرع باب بيتكم!..

- لا داعي لأن تحتدر يا هدام .. كان تصرفك صائباً .. وأصدقك القول بأنني ندمت كثيراً على عدم إخبار والدي بما كنت أبوي القيام به .. لكنني خشيت أن يمنعني من القيام بهذا .. ولم أفكر في موقعه عندما يكتشف أنني أقدمت على عمل علني من دون علمه وموافقته! .. فكرت في أن النتيجة تستحق المجازفة، وبأنني أضعتي من أجل نساء وطني ..

- كنت أعرف بأنك ستندمين يا ليلي، لكني لم أشأ معارضتك!

- أنا لم أندم يا هدام على المشاركة في المظاهرة .. ولا أظن بأنني سأندم عليها .. أنا نادمة على أنني لم أصارح والدي بهذا الموضوع قبل التورط فيه .. كان من الواجب عليّ مفاتحته بالأمر شأني شأن كل العتبات اللاتي شاركن معاً يوم أمس ..

- وماذا الآن؟

- أظن بأن باب الجحيم قد انفتح! .. ما حدث ليلة أمس هو البداية فقط يا هدام .. أدرك جيداً بأن الهيئة والإمارة ستصدران بعض الأحكام بحقنا

- لو تدوين كم سيكلفك هذا يا ليلي! ..

- هدام .. دعك من هذا .. أصورت المسيرة! ..

- قلت لها بارتباك: لم أتمكن من ذلك يا ليلي، أحاطت سيارات الشرطة بسيارتي فلم أتمكن من التصوير! - قالت بحيرة: ولقد أحاطت سياراتهم بنا وقادونا إلى مركز الشرطة ولم نجزع يا هدام! ..

- أنا لم أجزع يا ليلي، لكنني أدركت بأنه لا فائدة من تسجيل المظاهرة وأنا أعلم بأن الشرطة ستقبض عليّ وتغلب الأشرطة خاصة وأن سياراتهم كانت تحيط بي ..! ..

- متى تتحرر من حالة الجبن هذه يا هدام! .. صدقني، لا معنى لحياتك إن كنت ستعيشها مكبلاً بالخوف والضعف والتخذية! ..

- أظن بأنني سأترك هذه البلاد بمن فيها يا ليلي .. لا قدرة لي على العيش فيها أكثر مما عشت ..

- فلترحل يا هدام .. ارحل وابحث عن نفسك .. ولا تعد إلى هنا إلا بعد أن تصل إلى الحقيقة ..

- أعدك بهذا ليلي، أعدك أن لا أعود إلا حراً.

ورحلت بعدها بشمانية أسابيع... راسلت إحدى الصحف العربية التي كانت تصدر في لندن، زوّدتهم بمقالاتي وبتقاريرتي الصحفية وسيرة ذاتية لشاب يائس في عامه السادس والعشرين... شاب يبحث عن انتماء راسخ، انتماء لا يهتز ولا يموت... ولا يقتضب...

وجاءتني الموافقة على العمل في الصحيفة بعد أيام، فاستقلت من عملي... وياشرت بإنهاء إجراءات السفر من دون أن أخبر عائلتي بقرار رحيلي... وفي التاسع والعشرين من ديسمبر 1990م استقلت الطائرة المتوجهة إلى لندن... وتركت كل شيء خدي، عائلتي، وطني، الحروب الضروس وعزّابتي ليلياً... رحلت يومها من دون أن أودّع أحداً أو ألقت إلى شيء!

رحلت وقد قررت أن أنتهي من كل ما مضى، ففي ديسمبر تنتهي كل الأحلام... وفي يناير يشتدّ حلم جديد... ففي يناير 1990م بدأت حياة جديدة لا تشابه حياتي السابقة بشيء...

\*\*\*

أما رجل ينامري حتى النعاع، رجل يمتد بهايات الأعوام ويعشق بداياتها... رجل يخلق نشوة في يناير وفبراير، وينروي كآبة في نوفمبر وديسمبر من كل عام... أظن بأنني لم أتجاوز نهاية 1990م حتى الآن... لا تزال الخيبة تملأ نفسي على الرغم من مضي عقدين مرتت أثناءهما بمئات الخيبات... قد تكون ليلي امرأتي الأولى التي لم أنساها يوماً، لكن حبيتي المجهولة التي جاءتني في فبراير 2009م هي حب عمري بلا جدال... ولا أعرف إن كان مجيئها في فبراير هو استحضار لقلبي السابقة، أم أن العشق فعلاً لا يولد إلا في فبراير الملتهب... شهر العشاق...

لكن الكآبة بدأت تتسرب إلى نفسي مبكراً... أشعر بالخوف يخنقني أكثر فأكثر كلما اقتربنا من نهاية العام، شيء ما يسببني بأنها ستختفي في ديسمبر، كمدينة سحرية... تمر في ليلة وتختفي في أخرى... وأنا رجل أنهكته النهايات والبدايات... رجل يتوق لأن يستقر أخيراً بلا نهاية، بلا جنانة ديسمبر ولا فرائحة يناير... رجل يحتاج لأن يحيا من دون أن يلعب القدر الذي لاعبه

بعشوائية لقراءة العشرين سنة ولم يكثرث لمفاجآته طوال تلك المدة..

يخيفني القدر هذه المرة، ولا أدري لماذا يحدث هذا معي...

أظن بأني بت أخشاه لأن حبيبتي امرأة قدرية جداً، لأنها ابنة القدر الشرعية الوحيدة. لذا أشعر بأنه قادر على أن يجتثها مني في أي وقت. أن يشدها أمامي في أي لحظة... أن يمنحها مني... ويأخذها مني...

لظالما آمنت بفلسفة غاستون باشلار فيما يتعلق بالرغبة والحاجة.. كنت على إيمان أن الإنسان تحكمه الرغبة وليس الحاجة، لكنني أظن الآن بأن حاجتي إليها باتت أكبر بكثير من رغبتني بها.. وأدرك تمام الإدراك بأن حاجتي باتت تسيّرني، تتحكم بي وتحكمني.

اليوم أدرك أنني تجاوزت مرحلة الرغبة بكثير.. اليوم أعرف كم حاجتي إليها متوقدة.. وكم تغيرت مفاهيم الحاجة والرغبة لدي.. الحياة بالنسبة لكلياً ليست سوى صالة قمار، مجازفات تتلو المجازفات.. رهانات متغيرة.. ووجوه متجددة.. وخسائر مفاجئة.. وأرباح

غير مؤكدة. الحياة هي أنثى غائبة في كل يوم لها حديق جديد. أنثى مزاجية الهوى، أنثى لا تؤتمن بالسعادة قط!.. لكننا اتفقنا على أن لا يحيقنا شيء.. أن لا نحشي القدر وأن لا يورقنا المستقبل. لذا أحاول أن لا أفكر كثيراً فيما سيأتي، أن لا أقحم نفسي بمصعة القدر..

أذكر بأن أول هدية تلقيتها منها كانت مكعبي نرد، سألتها يوم ذاك عن مغزى الهدية.. أذكر كيف ابتسمت بغموض ولم تجب. يومها لم أعد عليها السؤال لأن كلينا لا يحب الإجابات المستحقة.. ولأن كل واحد منا مفرط المزاجية، وتكرار الأسئلة يفقدنا نكهتها ويعكر أمزجتنا..

لكنني أعود إلى هديتها في كل مرة تطيل فيها الغياب، أرمي المكعبين المصنوعين من الكريستال الخام وأنا أرقب الأرقام وهي تتغير في كل مرة أرمي فيها النرد.. فتبدو لي حياتي شبيهة به في تغيراتها.. وفي تقلب أحوالها..

هي أيضاً تشبه مكعبي النرد، متغيرة ولا تسير على

وتيرة واحدة.. في كل يوم لديها تردد مختلف وذبذبات جديدة.. إلا أنني أدرك بأنّها مع ذلك لم تحذلي يوماً أنا رجل يؤمن بأن الخذلان ما هو إلا سلوك رجولي بحت.. نحن فقط من نخذل بعضنا.. نحن من نخذل أنفسنا، نحن من نخذل النساء..!.. لذا أنا لا أحشى النساء أبداً أنا رجل لا يخافهن فحينما خذلتني العائلة وباعتني القبيلة وخانتني الوطن، لم يشارك في ذلك المزاد سوى الذكور من بينهم، فلم يكن للإناث أي تأثير أو سلطة.. وهكذا عشت رجلاً لا يخذله سوى الرجال.. وما أشع غدر الرجال..!

أحب كثيراً أن أفكر في مغزى الهدايا التي أنلقاها، فلكل هدية حكاية.. ومع كل هدية رسالة.. لكننا لا نتفكر كثيراً في معنى ما يهدى إلينا أهديتها في عيد الأم الماضي سواراً ذهبياً رقيقاً طلبته لها خصيصاً من بيروت، كان منقوشاً على السوار (أنا) بحروف عربية جميلة.. ظننت هي يوم ذاك بأنني قصدت به (أنا) يعني!.. ظننت بأنني استعصت بكلمة أنا للدلالة عليّ لأننا لا نعرف أسماء بعضنا بعضاً.. لكنني لم أقصد هذا

على الإطلاق.. لقد كنت أقصد (أناها) هي!.. بأن تفكر في نفسها دائماً وأن تتناسى.. هم وهم وهمي وهوا.. ولتفكر في أناها فقط.. فقط في أناها.. ضحكك كثيراً يوم ذاك على فكرة أن أهديتها بمناسبة عيد الأم فشرحت لها كم أتوق لأن أكرم كل امرأة في عيد النساء، فعيد الأم ليس للأمهات فقط حينها هو لكل امرأة يضيئ جسدها هرمون الأستروجين.. أتوق لأكرم كل النساء لأسى رجل يقدس النساء.. رجل لا يمتنهن أو يستغلن..

اليوم أخطو خطواتي "المثاقلة" نحو متصف عقدي الرابع.. ولم أنجز في هذه الدنيا سوى آلاف المقالات، وأربع روايات.. ويضع مئات الآلاف في حسابي الهيكلي، وشهادة الدكتوراه.. اليوم أنا على مشارف إنهاء روايتي الخامسة.. تتسابق الحروف لأنتهي منها.. تنهمر أفكارني بغزارة تنهكني تركض الجمل والكلمات في رأسي كفرس جامحة لا قدرة لأحد على إيقافها ولا رغبة لها بأن تتوقف.. أظن بأنني الكاتب الوحيد الذي يحاول استبطاء أفكاره.. ولا أدري لماذا أقبل هذا دوماً!

أعرف اليوم بأن الكتب لا تولد إلا مع الخيبات..  
خيبات القدر وحدها هي التي تدفعنا لأن نكتب . لذا  
أكاد أن أفقد شغفي بطقس الكتابة هذا.. لم تعد تغريني  
الكتابة، ولم أعد أشتهي الحروف كما كنت أفعل قبلاً..  
فكتبي لا تتزامن إلا مع فجائعي ورجل مثقل بالفجائع  
مثلي لم يعد يعزبه بريق أحزانه..

تترامى الآن أمام عيني، جملة علوان السهيمي التي  
حفوت في ذاكرتي منذ أن قرأتها.. قال علوان في رائعته  
"الأرض لا تحابي أحداً".. بأن "المآسي قيامات  
متكررة" ..1.. ولم يكن علوان محطناً في هذا..  
فحيما تقع في مأساة ما تقوم القيامة "الديوية" ولا  
تقعد إلا لتلغظ أنفاسنا، ولتستعدّ لقيام جديدة..

أعرف اليوم بأننا لا نودع الحزن إلا لمستقبل آخر  
بأن السعادة ما هي إلا فاصل رمني بفصل الحزن من  
الحزن الآخر. وبأن الحياة لثيمة، لثيمة جداً مع  
الأذكىاء.. وكأنها تعاقبهم على محاولتهم لفهمها ولسير  
أحوالها. تعاقب الحياة الأذكىاء والباحثين عن أسرارها  
فقط.. لا تقسو الحياة على غيرهم.. نحنو هي على كل

السطاء والسطحيين، تترفهم، تدللهم.. ولا ترفض لهم  
طلباً أبداً لأنهم لم يجرؤا يوماً عليها.. أعتقد اليوم بأن  
الحياة قد وضعتني نصب عينيها!.. أصبحت ممن تتلذذ  
بتعذيبهم . ترفعي الحياة حتى آخر حدود السماء.. ومن  
ثم توقعني أرضاً لتضحك شامته وبكل دناءة..

رجل مثلي يدرك، بطبيعة الحال، بأنه أضعف من أن  
يتحدى القدر، يدرك بأن حربه معه خاسرة، وبأن كل  
تحدياته السابقة له لم تكن إلا محاولات "استرجال"  
ساذجة . بأن القدر سيقتل الطاغية المسيطر، وبأنه سيبقى  
الشهيد الحي الذي لا يدري حقاً متى يشفق عليه القدر  
فيطلق عليه رصاص الرحمة الأخيرة ليموت ويرتاح .

أنا مكتئب!.. مكتئب جداً... وعادة لا تصيبني  
الكتابة أثناء كتابتي لأي عمل . أنا رجل لطالما أحب  
مرحلة الكتابة، رجل يستمتع بكل ما يصاحب تلك  
المرحلة المرهقة من أرق وألم وتصارب في المشاعر،  
لكتني، وما أن يرى كتابي النور.. حتى أصاب باكتئاب  
ما بعد الكتابة، فأكره كتابي (الوليد) لدرجة أشعر معها  
بالرغبة في أن أوثده وأتلف كل نسخته.. لكن حالة الكتابة

بدأت مبكرة هذه المرة.. استيقظت كأبتي نوفمبر،  
واستيقظت أيضاً روايتي الجديدة . ولا أدري إن كنت  
قادرأ على أن أصمد حتى يباهر القادم أو حتى إصدار  
الرواية .

الآن فقط أشعر بأن حياتي لطالما كانت عقيمة، أدرك  
بأنني لن أترك فيها شيئاً خلفي لن أترك فيها امرأة  
تعشقتني.. ولا طفلاً يحمل بعضي.. لن أترك فيها  
عائلة.. ولن يعتقدني بعد أن أرحل أي وطن، سأرحل  
عن هذه الحياة تاركاً فيها كلمات . فقط كلمات وما  
أبخر ثمن الكلمات

الحياة لم تعد بالنسبة لي سوى مرض عضال كما كان  
يردد سقراط في احتضاره . ولا أدري فعلاً كيف دخلت  
في هذه الدوامة! وإن كنت أظن بأنني دخلت في  
دوامة الكتابة بسببها هي! غيابها الذي طدل يكاد أن  
يفتك بي، الحب يفعل بنا ما لا يفعل بنا أي شيء  
آخر لا أزال أذكر حالة واحد من أصدقائي عندما  
انفصل عن زوجته مكرهاً أذكر كيف كان يطالع هاتفه  
كل دقيقتين أو ثلاث أملاً في أن تكون قد أرسلت إليه

أي شيء!.. كان يتوهم سماع صوت هاتفه طوال  
الوقت!.. كان يستيقظ من نومه ظناً منه بأنها تتصل،  
وهو يقسم بأغلظ الأيمان بأنه سيع صوت النعمة  
المخصصة لها ليصله سكون هاتفه في كل مرة!..  
صديقي هذا واحد من شهداء الحب وضحايا المجتمع.  
رجل كرهت الحب بسببه لفترة طويلة.. في كل مرة كنت  
أراه على تلك الحال، كنت أتجنب فيها جنس النساء  
لفترة طويلة لأنني كنت أحشى أن أصاب ببعض مما  
أصيب به.. كانت رؤيته وهو يتزف حباً بلا أمل تدمني  
القلب.. أذكر كيف كان يرسل رسائل نصية فارغة إلى  
هاتفها.. وكيف تدمع عيناه حينما يستقبل ردّها على  
رسائله الصامتة برسالة صامتة أخرى لا تحتوي على  
حرف واحد!.. كانا يتبادلان الرسائل الفارغة طوال  
اليوم ترسل إليه فيرّد عليها يرسل لها فتجيب على  
صمته بصمت لا يفهم سواهما!..

كنت تناول عشاءنا معاً في أحد المطاعم حينما استقبل  
إحدى رسائلها.. أذكر كيف وضع رأسه على طاولة  
الطعام ويكي بتشيج مكتوم!.. فزعت من انهياره المفاجئ  
فسحبت منه هاتفه لتطالعني رسائلها الفارغة تماماً من أية



كلمات.. سألته بدهشة: ماذا تعني بهذه الرسالة الفارغة؟! قال لي وهو يغالب دموعه المشتعلة وجهاً حيسماً أشتاقها أرسل إليها برسالة فارغة. وحينما تشاقني ترسل لي أيضاً. أرسلت لها قبل قليل برسالة لأنني أمتددا بشدة. فردت عليّ برسالتين فارغتين!..  
- وماذا تعني الرسالتان!؟..  
- أظن بأنها تفتقدني أكثر مما أفقدتها!..

ليلتها، تمنيت لو كان بإمكانني أن أقبض أي شيء أملكه في الحياة مقابل أن يتمكن من استعادة امرأته.. عرفت ليلة ذاك كم هو قاس علينا أن نشهد فراق عاشقين.. كم هو مضمّن أن يتفصل عاشقان قسراً ولا يتمكن من أن نمد لهما يد العون ليلتها كفرت بالحياة والسعادة والحب ولم أتمدّ ثقتي بها إلا بعدما التقيتها "هي" ا.. لكنتي أخشى أن يفقدني القدر ما استعدته مؤخراً.. لأنني أدرك جيداً بأنني إن خسرت إيماني بالحب هذه المرة فلن أتمدّد إيماني به مطلقاً. أدرك بأنني سألحد عاطفياً وإلى الأبد.. ولا أظن بأنني سأقدر على أن أكمل الحياة بعدما أجرد من عاطفتي أيضاً

ذهبت إلى شقتنا في ليلة شوق، اضطجعت على الأريكة التي احتضنت جسدينا في آخر ليلة حب.. كانت الأريكة مشربة بعطرها كنت أستشوق رائحتها وكأنها تجلس بجوارتي. وكأنها تحيط بي.. ولا أدري حقاً إن كانت رائحتها بالفعل عالقة في المكان أم أنني توهمتها كما كان صديقي يتوهم صوت نغمة زوجته..

اليوم تراني أفكر كثيراً في الحب الذي يوصلنا إلى حدود الوهم شوقاً وأملًا.. ا. أفكر في الحب الذي يجعلني أعاشر عشرات النساء خلال عقدين، لكنه يوقعني أسير امرأة واحدة فقط.. امرأة أشعر بأنها تكفيني عن كل نساء الكون، تغنيني عنهن جميعاً..

أما رجل عندما يغضب، تشور في داخله كل الحروف.. يقال بأن الرجل ينقّس عن غضبه إما بالتدخين أو بالجنس أو بالخمر، أما أما فرجل لا ينقّس عن غضبه إلا بالكتابة والحب.. لكن إن كان الحب هو سبب ثورتي هذه المرة، فكيف أعبر عما يحتمل في صدري..!؟..

بين الحين والآخر أخرج، الباوند الذي أهدتني إياه  
في يوم العيد الماضي.. أتحمسه كإرث مقدس!..

كنا في شقتنا يوم ذاك، نتناول ألواح الشوكولاتة  
بهم، ونحن لا نزال ممتدين فوق الأريكة... لم نكن  
يومها سوى طفلين يشاركان أريكة ويمدان رجليهما نحو  
الطاولة المقابلة لها بلهو الأطلاق قلت لها وأنا المق  
إصبعي المنفقاء بالشوكولاتة: أتدريين بأنه أول عيد ديني  
يجمعنا...!؟..

سحبث من المقعد المجاور حقيبة يدها وأخرجت  
باونداً، ملته لي قائلة: نسيت بأن اليوم يوم عيد.. عيدك  
مبارك...!

ضحكت وأخرجت من محفظة نقودي باونداً أعطيت  
إياها: أيامك سعيدة!..

يومها ضحكت كثيراً على "عيديتها"!.. لكنني  
أحببت الباوند جداً، وضعته في جيب خفي داخل  
محفظتي.. وخبات هي باوندي في حقيبتها.. شعرنا  
يومها بأننا قد حزنا على كل ثروات العالم بباوندي  
فقط!.. لكنني في كل مرة تطيل فيها الغياب، يأكلني

الحوف من أن لا يكون قد تبقى لي منها سوى باوندي  
واحد!..

الحب هو هدية الله التي لا تقدر بـشمن.. الحب  
حالة روحانية، حالة تجعلنا نتسامى إلى أبعد حد،  
نتسامى إلى حيث لا نعرف.. في الحب نشعر بأننا  
مباركون، مباركون للغاية نشعر بأن هالة من البياض  
تحيط بنا، بأن الله يحتضنا بشدة، بأن الحياة أجمل من  
أن تكون مجرد محطة في كل حكاية حب نشعر بأننا  
نحب ولأول مرة.. ننشئ وكأنا المرة الأولى التي  
ننشئ فيها.. لكن الحب قاسي قاسي جداً.. وأظن  
بأنني كبرت على أن أتحمل حباً مبهماً كالحب الذي  
يربطني "بها".

هي حالة غريبة، امرأة استثنائية.. حضورها جامع،  
حديثها شامع، امرأة واثقة، مؤثرة وقوية.. امرأة أرسلها  
القدر إلي في وقت لم أكن فيه بانتظار أي مفاجآت  
قدرة.. فأريكني مجيئها المفاجئ وزادني التباساً..

هذا التشويش هو ما يجعلني هذا الرجل، رجل  
المراجعة، التناقضات.. التذبذب تمنيني كثيراً لكنني

متدبس بها ولا قدرة لي على الشفاء منها.. أشعر  
أحياناً بأن مزاجيتي هي اللعنة التي أصابتي حينما غادرت  
الوطن.. الوطن هو تلك الأرض التي يلحن كل جميل  
فيها والتي تلحن كل من يفسدها . وليس أمامنا إلا أن  
نحتار، فلما أن نشقى فيها ولما أن نشقى بعيداً عنها..  
وأنا رجل يحقت الوطن، بمقته كثيراً، لذا أما على  
استعداد لأن أتحمّل لعنات الدنيا كلها ما دمت بعيداً  
عنه.. ولا يربطني به أو فيه أي شيء!..

قبل مجيئها، لم أكن سوى رجلٍ "استثنائي"..  
وبعدما جاءت، أصبحت نبياً نبياً موحى.. نبياً لم  
يكن في حياته قبلها.. سوى الكتب، والسجائر، وبيانو  
يشاطره الحياة.

وليام جيمس يدعي بأن الألم هو مفتاح الإبداع  
وطريق العبقرية، ولست أخالعه الرأي في هذا.. لكن  
الألم حينما يتفاقم يخنقنا.. فلا تعد قادرين على القيام  
بشيء بشئاً . وأنا في عيائها تنشتت في داخلي كل  
المشاعر والأفكار.. فلم أقدر على أن أفكر بشيء  
سواها لست بقادر على أن أتجرع المرارة العالقة  
بحلقي

رجل مشخن بكل هذه المرارة، لن يقتدر على أن  
يواجه القسوة التي تجابهه بها الحياة.. اليوم أفكر كثيراً  
بما تخلّفه لديّ هذه المرأة . يخيفني كثيراً ما يانت  
تحلقه مني . لأنني أدرك جيداً بأنها أن تركتني فجأة  
فلن يقدر شيء على أن يجثّ مغبة فقدتها أبداً..

في حياة كل امرئ منا، خيط رفيع يربطه بالحياة..  
ما أن يشقّطع هذا الخيط حتى يغدو الرعية بالتسفس  
والاستيقاط والتعكير والعيشا.. وهي الخيط الذي يبقيني  
حياً فكيف أمارس الحياة بلا رابط يربطني بها؟!..

كُتبت لها رسالة، احتفظت بها بحبيب معطفي.. علني  
أجد لها يوماً عنواناً أرسل لها عليه.. كتبت في رسالتي:  
( لما لا تعودين؟! )..

لكن الرسالة بقيت في جيبى ولم تغادره.. وظلّ قلبي  
يشن، يلوب في ألم، يسائل في شرود.. لم لا تعود؟..  
فلا يجيب سوى صدى "لم لا تعود" .. ولم أجد من  
أعائبه سوى الأيام، والزمن المفرق والوجود الذي

عائبتهم هدى في رائعة العياب تلك ولم تجد صدى  
لعاتبها "مثلي" ١ .

\*\*\*

أطلع بين الحين والآخر على ما تكتبه ليلى في  
الصحف السعودية تطالعني صورتها على صفحات  
الجرائد وهي تبتسم بانتصار وكأنها تقول عبر صورتها  
التي لم تتمكن من إرفاقها بمقالاتها إلا منذ سنوات  
بسيطة، "اليوم أظهر على صفحات الصحف وبصورة  
جميلة بعد حجب المجتمع والقانون لي ولصورتي لمقدين  
من الزمن" ..

ليلى التي نحتت سنوات البعد على ملامحها نصوحاً  
شامحاً . لم تعد إلى الكتابة إلا منذ قرابة العشر  
سنوات، كفت يدها عن الكتابة لسنوات بعد المظاهرة  
التي شاركت فيها لكنها عندما عادت لم تعد بمبادئ  
مختلفة ولا تغيرت قناعاتها السابقة في شيء! .. التوقف  
عن الكتابة والعقاب لم يغيراً فيها شيئاً أبداً ..

على العكس تماماً، فهي حينما عادت .. عادت وهي  
أكثر إيماناً بقضيتها، عادت وهي تخزن طاقة جبارة

تسعى بضراوة نحو التغيير الذي لطالما نشدته والذي  
جازفت من أجل حدوثه ..

أذكر اليوم الذي أرسلت لي فيه في أغسطس  
الماضي . فتحت بريدي الإلكتروني الخاص بالصحيفة ..  
لأجد رسالة بعنوان: خمن! .. كتبت لي فيها:  
العزیز هدام العاصم سيد المقالة العربية ..

لكم تعبرت! قرأت مقالاتك اليوم وأخذت أفكر في  
إن كان واحد منا قد توقع أن يصبح ذلك السحيل  
المخجول الذي التقيته مصادفة في مبنى الجريدة قبل  
عشرين عاماً من أشهر كتاب المقالة العربية ومن أفضل  
الروائيين العرب! ١٩

صدقتي، لا أظن أن أحداً منا قد تخيل ذلك! ..  
لا أعرف إن كنت السبب الرئيسي لتعبيرك ، لكسي  
أدرك، وبلا شك، أنني كنت أحد أسبابه ..  
أنسى أسباب تغيرنا يا هدام .. أم تظل أسبابنا حية  
في ذاكرتنا! ١٩ ..

فخورة أنا بأنني كنت يوماً من أقرب الناس إليك،  
وسأظل أذكر دائماً أننا كدنا يوماً أن نكون عائلة  
بالعناسة، رقت منذ أشهر بطفلي الثالث .. وددت

لو اسميته باسمك، لكنني فضلت أن اختار له اسماً  
جديداً لينتدئ من حيث لم ينته أحد  
كن بخير، ولا تنسَ ميكاً...  
ليلي قنديل،

ابتسمت حينما قرأت رسالة ليلي،.. لم ابتسم فرحاً،  
لكنني ابتسمت لشيء لا قدرة لي على تفسيره!..  
بعض الذكريات عندما تغفز في ذاكراتنا، وبعض  
"الماضيين" الذين يظهرون فجأة في حيواننا بين الحين  
والآخر، يجعلوننا نبتسم لا سعادة ولا تهكماً، بل لأن  
شيئاً ماضياً جميلاً، وأحياناً مرأى، زارنا في وقت لم نتوقع  
فيه أية زيارات من الأمل البعيد..

ربما ابتسمت لأنها لا تزال تذكرني. ربما سعدت  
لأجلها...! فرحت لأنها أصبحت أمّاً وأسست  
عائلة. ربما ابتسمت لأنني كنت بحاجة إلى يد حنونة  
تطبط على ظهري من ماضٍ لا يحنو عليّ منه شيء...  
أممم، الحقيقة أنني لا أدري لما ابتسمت!.. لكن  
رسالة ليلي كانت أجمل رسالة تلقيتها في حياتي كلها..  
لكنني لم أعرف بما أرد عليها، ضاعبت ثروة

الحروف مني وأفلست كلماتي... ولم أتمكن من أن  
أكتب لها شيئاً أعتبر فيه عن شيء بسيط مما يعمل في  
داخلي من مشاعر لا تفسير لها... وبعد ساعتين من  
المحاولات كتبت لها باختصار غير مبرور:

العززة ليلي،  
أعذك أن لا أنسى أسابي، وأن تظلي في عمري كل  
الأسباب..  
ظلي بخير وقبلاتي لصغارك ولحولوك الجديد..  
هذام العاصم.

عندما تركت المكتب، توجهت إلى الشقة التي ملقني  
فيها أنا و"غائبتي"... كنت بحاجة إلى مكان يشعرني  
بالحب، بيتي لم يكن دافئاً أبداً كان شاسع الوحدة،  
عميق البرودة. بطيء الزمن على العكس من مكان  
الثقائن الذي كان صغيراً، حميماً دافئاً، وممتكاً بنا..  
ظننت أفكر طوال اليوم في ليلي، في الذي جمعنا،  
في حكايتنا فيما أصبحت هي وما آلت إليه أما... كنت  
أفكر في العقديين الماضيين... فكرت فيما لو كنت قد  
تجاهلت جرحي وبقيت حيث كنت... فيما كانت ستكون

عليه حياتي الآن.. وفيما إن كان بقائي وقتذاك كقبلاً بأن  
ينسيني الجرح.. أشعر أحياناً أن يعدي عن الذين كنت  
أرتبط بهم هو ما يريدني غضباً، يراودني ظنٌ جبان  
يخشى المواجهة أسي ربما كنت سأتجاوز ما حدث لو  
كنت قد بقيت..

أشعر أحياناً أن رحيلي لم يكن إلا جيناً، وأنه كان  
من الواجب عليّ أن أبقى وأن أحاول استرداد ما اغتصب  
مني من دون أن أنفي نفسي أو أن أتخلى عن كل شيء  
في سبيل أن أحيى بسلام.. أشعر أنني لو كنت أشد  
شجاعة، ولو كنت قد واجهت الأحداث بجسارة لربما  
كنت انتصرت..! وإن كنت أدرك أن التيار الذي كنت  
أحاكسه لم يكن يسمح لي بالاستمرار في السباحة في  
محيطه الواسع وفي مياهه الثقيلة الهائجة.. كان ليقرني  
قتلاً ويقتلني عرقاً.. لكنني أدرك الآن أن الموت في  
استشهاده حب أسعدٌ بكثير من أن أعيش طوال حياتي  
مضطرب العاطفة..

كان من الغريب أن أفكر بليلي وفي غائبي في الوقت  
داته.. لا أعرف كيف نداخلتنا!، ولا كيف أفكر في  
امراتين، إحداهما تأبى العبور من حياتي على الرغم من

أنني لم أعد أحبها.. وامرأة أحبها لكنّها تأبى  
البقاء..!..

الحب من أعقد الأمور التي لن نستمكن يوماً من  
تفسيرها.. فأنا اليوم لا أزال أفكر في ما حدث بين  
مادلين وجهاد العام الماضي.. يدهشني كيف تجاوزا  
ذلك الخدش وكأنه لم يحدث.. تدهشني نوعية الحب  
التي تربطهما، ماهيته.. صلاته..!

لا أزال أذكر الليلة التي أيقظتني فيها مادلين،  
اتصلت بي قرابة الثانية صباحاً، كنت أقرأ في فراشي في  
محاولة استجداء للنوم، اعتذلت في جلستي ما أن رأيت  
رقمها على شاشة الهاتف، فلم تكن مادلين لتصل بي في  
ساعة كهذه إلا لأمر جليل..

قالت: هدام، أنا ع الباب.. افتح لي بليز!  
سألها بلعشة: باب!.. أي باب؟  
صاحت بعصية: باب شقتك يا هدام!.. يعني أي  
باب راح يكون!  
قلت لها وأنا أقفز من فراشي: حسناً حسناً، أنا قادم  
إليك!..

سحبت من خزانتي سروالاً طويلاً ارتديته على عجل،  
وهرعت نحو الباب...

قلت لها وأما أمتح الباب عفواً مادلين، نظرتك؟  
قالت وهي دالفة: ما تعتل هم.. كثر خيرك فتحت  
إلي بهالوقت! بس كنت أكيدة إنك ماتمت بعد..  
منشان هيك جيت..

قلت لها وأنا أدير سخان القهوة شرفت يا سنا،  
أحكي لي، شو اللي صار معك؟

قالت وهي تمسح دموع غارة من عينيها: ليه دايماً  
العليجين يبحكوا لباسي مع اللبانية ويبحكوا مصري مع  
المصريين!

قلت لها وقد بدا أمامي قهرها جلياً على الرغم من  
جملتها التي حاولت فيها أن تداري قهرها: تعدد  
مواهب!..

قالت وهي تزيع شالها عن رقبتها: شو غليظ!..  
وضعت كوب القهوة أمامها، قلت وأنا أمسح على  
شعرها: قول لي!.. عم بسمعك!

قالت وهي تقاوم البكاء: ما بعرف شو بدي  
أفلك!..

- أحكي ولا تفكري..

- أممم، كانت طالعة لمانشستر أسبوع كنت رايحة  
أرور رفيقة هونيك!

- آيه!

- كنت رايحة أزور إسملي سمعان، ما أنتا بتعرفا!..  
هزرت براسي مستحشاً: آيه!..

- كان المفروض إرجع بكرة.. بس حببت أصعل  
مفاجأة لجهاد.. فجيت اليوم!..

شعرت أنني بدأت أهمم ما حدث، قلت لها: وشو  
اللي صار؟

انفجرت بكاء.. جيت وحصلت البيت كله شموع  
وزهر يا هدام!.. ظليته منشاسي!.. ما بعرف كيف  
فكرت هيك!.. جهاد ما كان ييعرف إني جاية!.. بس  
ما بعرف ليه فكرت أبو منشاسي!.. يا الله شو بلهاء!

ضممتها إلي صدري بقوة، قالت وهي تصيح ما بين  
دموعها: سمعت صوتن في غرفة النوم!.. تصور يا هدام  
في غرفتي وع تحتي!..

- طولي بالك، طولي بالك!.. ما تزعلي.. كل  
مشكلة ولها حل.. روقي..



- جهاد يعمل هيك يا هدام!.. جهاد! يتخيلا  
ميك، من بيتي.. من أيا واحد في الدنيا!.. بس  
جهاد!.. معقول جهاد!..

- خلاص خلاص ما تحكي!.. قومي وتحممي ع  
بال ما أصل لنا شيء نأكله .

- ما هيني يا هدام!.. حاسة حالي راح موت!..  
- لو مانت امرأة لأن زوجها خانها، لمات نصف  
نساء الكون..

قالت وهي تمسح دموعها - بذك تفهمني بأن نصف  
رجال الكون خونة!؟..

- بل جميعهم، لكن نصف هؤلاء هم الذين تنكشف  
خياناتهم أمام نساتهم.

ابتسمت بمرارة: يا الله!.. ما يعرف كيف يتعامل  
مع كل شيء في الحياة ببساطة!؟..

- لأن الحياة أبسط مما نتحيل، نحن من يعقدها يا  
مادلين!..

- ما اللي إيدو بالبار مو مثل اللي إيدو بالميت!  
أنتا شو اللي همك!.. ما أنتا في حياتك كل يوم ست،

ست رابحة وست جاية!.. ما بفهم شو يعني التزام ولا  
ارتباط ولا حب!..

قمت من مكاني وسحبته من يدها باتجاه الحمام. ع  
بال ما تتحممي أكون جهرت لك لقمتين طيبين.. راح  
تحضلي المتأشف في الخزانة السفلية..

دخلت إلى الحمام مستسلمة، وتركنت في المطبخ..  
احتصر ألماً على قصة حب عظيمة تكاد أن تنهار أمامي،  
لم أكن على استعداد لأن أتقبل قملة جهاد! فعلى  
الرغم من أن جهاد صديق عمري ومع أنني قادر على  
تقبل أي شيء منه، إلا أنني لم أكن لأقبل أن يمس  
مادلين أي أذى منه، كل شيء يقبل منه، إلا مادلين!..

مادلين وجهاد لم يكونا بالنسبة لي مجرد صديقين،  
كأنا بالنسبة لي العائلة في الغربة والانتماء والمرجع  
الوحيد الذي أعود إليه.. في بيتها أشعر أنني في بيتي،  
أعرف مكان كل شيء. وكل شيء في بيتها يعرفني.

بصحبتهما لا أشعر أنني غريب، بل أشعر أنني ثالث  
ثلاثة!.. ضلع المثلث الثالث الذي لا ماص منه والذي  
لا بد من وجوده بينهما..

أنا لن أسى يوماً، كم عرفتني مادلين على غيتات

بعرض أن تروّجي إحداهن.. لن أسى صناديق الكعك  
التي تروّدي بها في كل عيد.. ولا مفاجآت أعياد  
ميلادي التي كانت تعدّها لي ولا يذكره سواها.. لن  
أسى أنها الوجه الوحيد الذي قابلني بعد استيقاظي من  
عملية استئصال الزائدة الدودية التي أجريت لي قبل عدة  
أعوام..

لن أسى السجادة التي أهدتني إياها لأصلي، يومها  
سألتها بسحرية: كيف تهدين مسلماً سجادة وأنت  
مسيحية؟.. مو حيب عليك؟..

قالت: بنحى أشوفك تصلي مرة واحدة بحياتي!..  
- وما شألك أنت؟..

قالت بعصية: مايدي تروح النار ياخي!..  
يومها أحببت مادلين أكثر، أحببت تسامحها..  
وبياضها.. وإيمانها.. ووددت لو أصبحت مثلها يوماً..  
حكاية حب جهاد ومادلين هي الحكاية التي أستند  
إليها في لحظات اليأس، هي الحكاية التي تشعّرنني أن  
حباً ما.. امرأة ما.. لا تزال تبحث عني في رقعة  
ما.. فكيف يشوّهان الحكاية؟.. ولما بفعلان بي  
ذلك..!..

خرجت مادلين من الحمام وقد لفت جسدنا بإحدى  
مناشف الاستحمام الكبيرة.. قلت لها وأنا أسكب  
الطعام في الإناء:

- كأنك طبعتي الميانة!..

- قالت وهي تعدل المنشفة المحبطة بشعرها: شو  
يعني!..

- يعني كأنو عبرت بتموني!..

- ما فهمت!

- تتمشي في بيتي بالمنشفة بس!..

- دخيلك ياللي ما يتمشي في بيتي بالبوكس!..

- فا كان زمان!.. الآن أنا محترم.. راقل ملو  
هلومي!..

- أنا دايم هيك!.. شوية خليجي، ع شوية لبناني

ع شوية مصري، ع شوية إنقلش.. شو قصتك اما عندك  
هوية؟

- عندي جواز سفر

صمتت قليلاً وقالت بآلم: متي قادرة أصدق اللي  
صار!..

قلت وأنا أحمل الطعام إلى طاولة الأكل حيث  
تجلس: ما تفكري!.. الرجال كلهم كلاب ضالة!  
ضحكت بضيق: هي الكلمة الوحيدة التي حينها منك  
من إحييت!..

- مادلين صدقيسي أمامك أمر من أربعة، إما أن  
تشجاهلي ما حدث الليلة وتعودي في الغد إلى جهاد  
وتعري له كأن شيئاً لم يحدث، وإما أن تعودي إليه  
وتصارح به بكل ما رأيته وتحاولان معاً التوصل إلى  
اتفاق، وإما أن تذهبي إليه وتحبريه بمعرفتك بما حدث  
وتتركه إلى الأبد..

- والأمر الرابع؟

- إما أن تخونيه معي، فتعادلان!

ضحكت من قلبها، فابتسمت: مادلين.. لو كان ما  
بيهما حقيقة لاخبرني جهاد.. هي ليست إلا نزوة..  
نزوة يخجل من ذكرها حتى لي.. صدقيني مادلين  
النزوات تنتهي ما أن تقع..

- اللي يغلط مرة يغلط مليون مرة يا هدام!..

- مادلين، جهاد بلش يكبر، وأنت لساتك صبية..

مشان هيك يحاول يثبت لعمه بنزوة بيرتكبا أبو لساته  
مرغوب ولساته شب!..

- عمري 46 سنة يا هدام وأنا بتقلي لساتك  
صبية!..

- وعمره شي ستين سنة لدا راح تظلي بعيونه صبية  
مهما كبرت!..

سكتت قليلاً وقالت وهي ترفع الملعقة إلى فمها:  
قلت لي ليه يبحكوا العليجين لبناني مع اللبنانية!؟  
- تعدد مواهب!..

وضحكت مادلين فاطمأنت نفسي!.. وعادت إليه  
في اليوم التالي كما كان مقرراً..

عادت إلى جهاد وكأن شيئاً لم يكن.. وإن كانت قد  
قررت أن تلقنه درساً قاسياً.. كنت أعرف أن من  
المستحيل أن تفكر مادلين بخيانة جهاد كما يفعل عالية  
اللواتي يتعرضن للحياة في مجتمع مفتوح، لكن مادلين  
لم تكن من ذلك النوع من النساء.. كانت امرأة مؤمنة  
على الرغم من بعض المعاصي الصغيرة إلا أنها كانت

تعدّ من المسيحيات المحافظات.. اللواتي لا يرتكبن خطيئة كذلك.

لا أزال أذكر وجه جهاد الذي كان يزداد سوءاً يوماً بعد يوم، لكنني لم أجري على سؤاله عن أسباب تغييره وبداية الكتابة التي كان جلياً أنها بدأت تنسب إليه. لم أسأله لأن حواراً كذلك كان من المفترض أن يبدأ هو، وليس أنا.. مهما كانت علاقتنا قوية..

لكن سمعته لم يطل.. اتصل بي وأنا في مكثي، قال باقتضاب: أريد أن أراك!

وجدته عندما جئت رجلاً ضعيف الهمّة، وكأنه رجل آخر... قال لي: هدام ما سأخبرك به يجب أن يبقى بيننا..

- لست بحاجة لأن تطلب مني ذلك.. فما بيننا لطالما ظل بيتنا..

- لكن الأمر يختلف هذه المرة يا هدام.. هذا الموضوع ليس كأي موضوع آخر..

قلت له ساخراً: أجنتك الموساد؟  
- بالنسبة لي، الموضوع أهم وأعظم من أي أمر قد تتحيله.

قلت له بحزم: فلنعمد عليّ!..

- مادلين.. مادلين يا هدام!..

- ما بال مادلين؟

أخذ يتحسّس جيته بأصابعه يتوتر، ما يعرف!

- بإمكانك أن تحبرني عن أي شيء

- بحسب أنو مادلين مثلاً طيعية.. فيها شيء!..

- شيء مثل شر؟..

- ما يعرف!.. ما يعرف..

- قل ما عندك!..

- بحسب أنا بتخونني!..

قلت له بسخريّة: شو هالحكي!

قال بعصبية: كنت أكيد أنك راح تتعامل مع حديثي بهالسخريّة.

- طوّل بالك.. أنا بس مستغرب.. كلنا بنعرف شو

بتحك مادلين.. ما يعرف مين جيت هالعكرة!..

- تصرفاتنا يا هدام!.. تصرفاتنا..!.. مثلاً

مرتي!.. صارت بتتهم بحالا كتير.. بتنزوا كتير..

بتظهر كتير.. أيّ صح مادلين بتحب هالأشياء، بس مو لهاالدرجة المجنونة!

قلت له: هذا ليس بدليل على أنها تحونك..

- صدقي يا هدام.. لو تأكدت من هالشيء..

صدقي بقتلا..

قلت له: لا والله براهو عليك!.. تقتلها لأنك تظن

أنها تخونك.. ولا تقتل نفسك على الرغم من أنك

تخونها..

قال متصدماً: شو خنتا وما خنتا، من وين جيت

هالحكي؟!..

اتكأت يكفي على مكتبه وانحنيت باتجاهه. قبل

شهر!.. لمن كانت يمانشستر..

هت من مكتبه واقعاً: وأنتا شو عرفك ؟؟

- هي حكيت لي..

- مادلين!!!!..

- كانت حاتبة تعمل لك مفاجأة لما وصلت البيت

حصلتك محضر لها مفاجأة من حيار ثقيل..

- دحيلك ما تقول!..

قلت له متجاهلاً: جاءتني البيت.. شبه منهارة..

لكن لا تفلق لم أستغل ضعفها وجرحها.. دخلت سليمة

وخرجت سليمة..

- وضع يديه حول رأسه: يحرب بيتك يا هدام ع

هالخبره!..

- أنت من يخطر وأنا من يحرب بيته!..

- ياربي دحيلك!..

- آخر ما كنت أنصروه منك هو أن تخون مادلين..

- دحيلك ما تحكي هيك، ما أنتا كل يوم مع

صية.. جاي بتعمل حالك خوري علي!..

- وهل تقارن نفسك بي!.. أنا ماني مجوزا.. ما

بحياتي ست كالست اللي مضوية لك حياتك!..

- الله لا يعطيك عافية يا هدام، الله لا يعطيك

عافية!.. ليش ساكت طول هالوقت؟

- هي طلبت مني أن لا أخبرك، ومن حقها علي أن

أستجيب لطلبها..

- يعني اللي بفكر فيه متو وهم!.. مادلين تخونني..

- مادلين لا تفعل شيئاً كهذا..

- وليش ساكته طول هالوقت إذا ما عندا شيء!..

ماني مرا بترضى تشوف جوزا يبخونا وتسكت.. مادلين

ما بترضاها.. ما بتسكت إلا إذا كان عندا شيء

- مادلين أذكى مني ومنك، قلت على أن تعذبك طوال هذه المدة.. من دون أن تمس وفاءها فعلاً..  
 - شو بعمل يا هدام؟!.. دخلك ماتركني..  
 - قل لي أولاً، من هذه التي كنت معها ومنذ متى وأنتما على علاقة؟  
 - وحياتك يا هدام، وحياة مادلين.. هيدي أول مرة بعملنا من شي عشرين سنة..  
 - ألن تخبرني عن تكون؟  
 - صبية ما بتعرفا.. تعرفت عليها بالطيارة وأنا جاي من المؤتمر الأخير في بيروت.. متا إلا نزوة يا هدام..  
 صدقتي ندمت عليها أول ما صحبت متا..  
 - ما المكورة ما بتجي إلا بعد ما تزول المكورة..  
 - شو بعمل يا هدام..؟!.. إحلك لي كيف أتصرف؟  
 - برأيي أن نأخذها في إجازة، نتحدثان ألساها وتحاولان تجاوز ما حدث.. نخذها للمالديف مثلاً.. أو بالي.. أذهبنا إلى مكان تجدان فيه حيكما..  
 شرد جهاد قليلاً ومن ثم قال: الله لا يعطيك عافية

يا هدام!.. الله لا يعطيك عافية ففكرتك صاحبي!..  
 كيف بتسكت طول هالوقت؟  
 - ففكرتك صاحبي بتحكلي لي كل شيء أنت كمان، بس طلع عندك أسرار وسوان.. وشيء يسود الوش!..  
 - دخيلك أتركسي لحالي.. يدي أجلس لحالي شوي..  
 قصت من مكابي ياتجاء باب المكتب عندما صاح بعصبي: ما يعرف لي بتحكلي لثنائي لما تحكي معي!..  
 التفت إليه مبتسماً: تعدد مواهب!..  
 وخرجت ضاحكاً..  
 ضحككت لأن مادلين وجهاد يشابهان كثيراً، حتى ملامحهما تزداد تشابهاً كلما تقدم بهما العمر.. وكأنهما يعودان إلى رحم واحد كلما كبرا.. وأنا أعرف، أعرف جيداً أن هذا التشابه ليس إلا فعل حب!..  
 عندما خرجت، كنت مدركاً تماماً أنني تركت جهاد يصارع أفكاره وخجله وخوفه من أن يفقد مادلين!..  
 أخذت أفكر يومها لما تجاوزت بنسائنا إن كنا نخشى خسارتهم!.. لما نظنّ دائماً أنهم راغبات بالمغفرة وأنهم

قادات على ذلك، لما يقامر بالحب والاستقرار والراحة والأمان والطمأنينة والعشرة من أجل نزوة غالباً ما ننجم عليها ما أن تسكب مياهاً..

أخذت أفكر في خسائر الرجال الذين ينهزمون أمام الرغبة، والذين تتعطل عقولهم أمامها . فكرت بكم من علاقة انهارت في لحظة ضعف، وكم من حكاية انتهت يوم يفقد فيها الرجل واهه جزاء رغبة طارئة..

فكرت بمادلين، تلك المرأة المحبة الاستثنائية، فكرت بهذه الطاقة من الخفراء التي تشع منها وبقدرتها على المضي بتسامح وسلام على الرغم من خذلان جهاد لها..

ولم تخيب مادلين ظني بها، صمدت على الرغم من مرارة الحدث. سافرت مع جهاد إلى المالديف وهذا وكانهما قد تزوجا نلتو . لم أسأل عما حدث بينهما هناك ولا كيف استطاعا أن يتجاوزا ذلك الجرح . فكل ما كان يهمني هو أن تعود مادلين سيدة لجهاد، وأن يعود جهاد رجل مادلين لطالما أحببت.. ليعاودني الأمان الذي فارقتني ما أن وطأت مادلين عتبة بابي وهي منهارة تلك الليلة.. ولأفكر مراراً وتكراراً كيف يعيش الحب

على الرغم من الطعسات والطلقات من دون أن يلفظ أنفاسه الأخيرة ويموت..

\*\*\*

وعلى الرغم من أنني كائن قلبي جداً، إلا أنني لست بقادر على أن أتصالح مع الموت على الإطلاق ..

أفكر كثيراً في أن "الموت ليس نهاية القصة بل بدايتها" . جملة مصطفى محمود التي أعلقها في مكتبي منذ قرابة العشرة أعوام . والتي لا أزال أجهل ما وراءها، والتي زادت حيرتي بشأن ما يحبه ما بعد الموت..

أفكر في الضوء وفي العتمة التي قد تلوح لنا ما أن نموت، في سراطه، في البرزخ.. في رائقته . في ألوانه.. في ماهيته المجهولة.. وفي صوت الموت الصاحب المكنوم..

لطالما بحثت في ماهية الموت فتشت عنه في كل الأديان.. لكسي لم أصل إلى تصور واضح عن هذه التجربة.. كل الأقاويل تتجاوز مدى تفكيري بكثير،



لكي على الرغم من إيماني بأن الأقاويل الإيمانية تتجاوز العقل إلا أنها لا تتناقض معه كما يؤمن بعض الفلاسفة.. ومع ذلك أتوق إلى إجابة تشبع هذا الفضول بشأن الموت الذي بات يتعني جهلي به..

أذكر جملة جهاد البسيطة يوم تناقشنا بخصوص هذا الموضوع، فقال لي متمللاً: لا تفكر في الأمر كثيراً يا هذام.. ستصل إلى كل الإجابات التي تشغل بالك ما أن تموت..

ومع أن جملة جهاد كانت في أقصى حالات الواقعية إلا أنها أحبطتني كثيراً.. أحبطتني فكرة أن أبقى جاهلاً بالأمر حتى لحظة مروري بالتجربة.. أنا رجل لا يعمل كثيراً على النظريات.. لكنني، وعلى الرغم من هذا لا أحبذ الخوض في "كل" التجارب لإثبات نظرية ما، خاصة إن تعلق الأمر بمجهول كالموت.. الموت ليس كالحياة، في الموت لا تغرينا التجربة. 1. قطعاً لا تغرينا..

للموت هبة لا يضاهيها شيء، تكمن هيته في أن شهود الموت لا صوت لهم.. فحينما يشهد أحداً

الموت.. يسكت صوته إلى الأبد.. فمن يذهب إلى الموت لا يعود منه.. الموت لا يخط رجعة له، خط ذهاب بلا إياب، طريق واحد يستقل البشر ولا يرسلهم، يأخذهم ولا يعيدهم.. فكيف نعرف معنى الموت وكيف نفهم سره إن كانت الدروب تفضي إليه ولا ترتد منه أبداً.. 12..

أنا رجل لا يخاف الموت.. لكنني أحترمه، أحترمه أكثر من أي أمر آخر.. أحترم غموضه، هيته.. ووقاره الذي لا يضاهيه وقار.. 10.. وقور هو الموت بحضوره، بحزنه، بسواده، بصمته وبروده.. وقور هو بكل ما فيه..

لذا نطالبنا انحنيت احتراماً للموت لأنني لست بحاجة لأن أمر بما مرّ به فولتير الذي يشاع بأنه كان من أشرف الملحدين، والذي عاش فترة احتضاره وهو "يلمن" الموت الذي أدرك كم هو رهيب ومهيب أثناء مواجهتهما.. شخصياً أحترم الموت من دون أن أمر بالتجربة. أحترمه قاعاً وأدرك بأنني سأصل إليه حتماً لا محالة. لكنني لا أرغب بأن أموت وجعاً.. فبعلها يوجعني بشدة وفرويش قال يوماً بأن "أسباب الوفاة

كثيرة من ييها وجع الحياة \* وأنا رجل يؤمن بكل ما  
يقوله درويش... 1... يؤمن به بشدة..

\*\*\*

Yesterday

All my troubles seemed so far away

Now it looks as though they're here to stay

Oh, I believe in yesterday

Suddenly

I'm not half the man I used to be

There's a shadow hanging over me

Oh, yesterday came suddenly

عندما تبكىنا الأغاني، فهذا يعني بأننا إما في أقصى  
حالات الوجع أو أننا في أشد أوقات الحاجة.. وكلا  
الشعورين أمر من الملقم... 1...

إلهي لكم هو قاسي أن تبكي رجلاً في منتصف  
أربعينياته أصبية عمرها عشرات الأعوام... لكن

Yesterday اليتلز تحكيها تحكي حالتي بوجودها وفي  
غيابها . أغنية اليتلز هذه إرث البشر الذي سيترك  
على الأرض إلى يوم لا يكون فيه أحد.. إلهي لكم بت  
أشعر بأنني لم أعد شيئاً في غيابها وهذه مشاعر  
لامنطقية هذه مشاعر لا تشبه المنطق أبداً. لكن  
الحب حالة لامنطقية، وفي هذا عزاء لي بكل تأكيد..

من يصدق بأن رجلاً مثلي، رجل بقدرتي . بات  
يقضي لياليه باكياً على أريكة مشربة بعطر امرأة لا يعرف  
حتى اسمها الأريكة التي أصبحت كهفي منذ أن نامت  
عليها "هي"، منذ أن تلطخت بأحمر شفاهها وتشجعت  
برائحتها.. 1.

من قال بأن الحب يمنحنا الحياة؟.. الحب يحث  
الاستقرار متاً، الحب يغيرنا، يغيرنا تماماً.. 1. وأنا  
أحتاج لأن أطمسها من حياتي كلياً، أحتاج لأن أنتزعها  
من تاريخي، لأن أفقد جزء ذاكرتي المتعلق بها.. لكنني  
أدرك جيداً بأنني لن أقدر يوماً على أن أفعل هذا..

هذه المرأة عندما جاءت.. جاءت وهي تترك بأنها  
ستخلد في داخلي، جاءت وهي واثقة بأن مثيلاتها لم

يوجدن يوماً.. لذا كان افتتاحها عنيماً، كان اجتياحها  
صاحباً، عارماً..

أنا رجل لا ثلثته سوى الذكيات.. وذكاء المرأة لا  
يكمن في قدرتها على أن تحب رجلاً فيها، المرأة الذكية  
ليست التي تجعل من نسيانها أمراً صعباً، المرأة الذكية  
هي التي تجعل من نسيانها أمراً مستحيل الحدوث..  
وحبيبتني امرأة حادة الذكاء.. امرأة لا يمكنك تجاهل  
مروها في حياتك أو تجاوزها..

أصعب ما في الحب هو أن ترتبط عاداتك بالطرف  
الأخر لأن تلك العادات تعطينا بعدما نفصل عن من  
نحب.. عادة التفاصيل هي التي تشدنا.. هي التي  
تبهرنا، وأنا رجل يحب التفاصيل الصغيرة..  
يعشقها..

كنا نراقب بعضنا بعضاً بحب صامت في أحد  
المطاعم، كنت متكئاً على مرفقي أنظر إليها مشدوهاً،  
وقد كانت تجلس مثلي، تتكئ على مرفقها صامتة وكان  
الحب قد عقد لسائناً.. لاحظت يوماً بأن ساحة يدها

تحيط بمعصمها الأيمن على العكس من 'أغلب'  
البشر.. سألتها: لماذا ساعتك في يمينك؟..

- قالت مبتسمة. ولماذا ساعتك متقدمة عن الوقت  
الأصلي بربع ساعة؟..

- ضحكت بقوة لأن غيرها لم يشتبه يوماً إلى أنني  
أقدم توقيت ساعتني خمس عشرة دقيقة دائماً..

- أجبتها: لا أدري!.. أظن بأنها عادة!.. ربما  
أستبق الوقت أو أتوق إلى المستقبل.. ماذا عنك؟..

- أجابت: أنا أيضاً لا أدري!.. أظن بأنني أخالف  
البشر فقط..!..

يومها خلعت ساعتني وليستها في يميني مثلها  
وقلعت هي ساعتها خمس عشرة دقيقة مثلي.. لسبق  
سكان لندن وليصبح توقيتنا خاصاً بنا وحدها..

لكن توقيتنا الخاص بات يؤلمني، ففي كل مرة أنظر  
إلى ساعتني، أفكر في الوقت الذي ستهود إلي فيه..!..  
أفكر في أسباب تأخرها.. ولا أصل إلى أي نتيجة..  
وأغية البيتلة توجع في داخلي الخوف والجوع والشوق  
أكثر فأكثر فأكثر..

Why she

Had to go I don't know, she wouldn't say

I said

Something wrong, now I long for yesterday

Yesterday

Love was such an easy game to play

Now I need a place to hide away

Oh, I believe in yesterday

فعلاً أنا لا أعرف لماذا عليها أن ترحل، هي لا  
تخبرني عن تلك الأسباب. حقاً لطالما كان الحب في  
نظري لعبة سهلة، لكنني أحتاج الآن لأن أختبئ بعيداً..  
بعيداً جداً.. لأن الحب بات أكبر مني بكثير، لم يعد  
الحب بالنسبة لي تلك اللعبة البسيطة!.. ولا أدري حقاً  
إن كان عمري هو السبب، أم أن امرأتي فعلاً ذات  
سطوة!..

في ليلة رأس السنة الماضية، وفي ضيافة جهاد  
ومادلين اللذين يستضيفاني في أغلب المناسبات قمت  
لأتلو عليهم، وعلى المجموعة الصغيرة من أصدقائنا  
المشاركين، فائحة بحططي التي سأقوم بها خلال العام  
الجديد... كان هذا طقس آخر ليلة من كل عام.. أذكر  
بأن مادلين سألتني معازحة بعدما انتهت من قراءة قائمتي  
الخاصة: ماذا عن الحب يا هدام..!؟.. ألا تحتاج إلى  
أن تحب..!؟

أجبتها يوم ذاك بأن الحب ليس من خططي، لأن  
الحب يأتي بلا تخطيط...!.. وأظن بأني كنت محقاً..  
فحينما جاءني الحب جاءني على حين غرة، اعتراضي بلا  
استئذان ولا تخطيط.. عندما جاءت حبيبتي، جاءت في  
ليلة لم أتوقع أن أنقي فيها بالحب أبداً.. جاءني بعد  
خطابي - العاشل - ذاك بقرابة الشهرين... التقيتها في  
فبراير الماضي.. توأماً قلتاين وكيوييد والمطر واللون  
الأحمر علي.. فلم أقدر عليهم ولا عليها، وانهرت حياً  
في شهر العشق..

إلهي لكم يؤلمنا الحب أحياناً، الألم ليس إلا وجهاً

من وجوه الحب.. على الرغم من أنني لطالما آمنت بأن  
الألم هو ما يدفعنا لأن تبذل ولأن تكبر.. ولأن ترداد  
عظمت إلا أنني بت أؤمن بأن هناك مرحلة من  
مراحل ما أن نصل إليها حتى نصبح غير قادرين على  
إنجاز شيء! أوسكار وايلد قال يوماً بأن الألم يؤثر  
مينا ضعف ما تعلمه بنا اللغة.. وأظن بأنه أصاب في ما  
قاله!..

أذكر بأسي قد سألتها يوماً إن كانت تعتبر ما بيننا  
حماقة.. ١٩..

- أجابتي ببساطة: وإن كانت!..  
- أترتكبين الحماقات بلا شعور بالذنب تجاه  
نفسك.. ١٩..  
- أنا لا أرتكب الحماقات، الحماقات هي من  
ترتكبن!..

يومها أدركت تماماً بأنها امرأة متصالحة مع نفسها  
أكثر مما كنت أظن، عرفت يوم ذاك بأنها امرأة لا تنلم،  
ولا تلتفت لمن يسقط خلفها.. امرأة تظن بأن الجرم هو  
من يرتكبه، وبأن لا يرتكب الجرم أبداً.. يومها اعتقت

فلمعتها فيما يتعلق بالخطايا والحماقات،  
والجرائم...!.. اعتقتها تماماً..

\*\*\*

لطالما وجدت في مسارح الوبست إند شيئاً من الحياة  
الأخرى.. شيئاً من السكينة.. والتسامي، شيئاً من  
الرقى، من الحنين، من الحرية!.. وقد كانت حبيبتني  
إحدى عاشقات مسارح لندن.. لما دعيتها ليلة إلى أحب  
المسرحيات إلي وأكثرها تأثيراً في نفسي.. فهبنا ليلة  
ذاك لنحضر مسرحية البؤساء لفكتور هوجو.. ومع أنني  
قد حضرت المسرحية لعدد لا أذكره من المرات خلال  
قراءة المقربين إلا أن العرض، تلك الليلة، كان مختلفاً  
كلياً بالنسبة لي.. لم يكن عرض تلك الليلة كأى عرض  
سابق.. كان عرضاً استثنائياً!..

أذكر كيف تشبثت بلراعي أثناء غناء ذات الصوت  
الجبار بـ I dreamed a dream عندما وصلت إلى المقطع  
الذي يقول:

I was young and unafraid

And dreams were made and used and wasted..

شعرت بدموعها تنساب على كتفي ولأول مرة...  
كان بكاءها شامخاً، سامقاً.. مكابراً.. مهيباً...  
لحظتها أدركت بأن أكثر لحظات الرجل أماناً هي حينما  
يحيط امرأته بذراعيه، حينما تشعل امرأته صدره، عندما  
يحتضن رجل امرأة "يحبتها"، يشعر بأن الحياة تحتضنه  
بشدة. تحتضنه بحبا.

لم أعرف يوماً بأن هناك نوعية من المشاعر، يتجاوز  
بها الرجل اللذة، يتجاوزها إلى مرحلة ما فوق اللذة  
إلى مرحلة الأمان والسكينة والروحانية.. هذه المشاعر  
لم أشعر بها إلا من خلالها هي، هي وحدها من  
أوصلتني إلى هذه المساحة الشاسعة من التجلي..

عابرات الأسوة، لا يشعرنني بالذنب أبداً، لكنهن  
لا يخلقن بي شيئاً.. عابرات سريري ينهين ما أن  
يقادرنه! يرحلن من دون أن يحلقن في داخلي أي  
شيء.. أما هي، فتروسم على جسدي في كل مرة تغادر  
فيها سريري وشمّاً لا يمحي في كل مرة تتركني فيها

وترحل تُبقي لي شيئاً منها شيئاً ليس كأي شيء...  
ولا أفهم فعلاً كيف تمارس هذا عليّ.

عندما رحلت آخر مرة.. عرفت بأن شيئاً ما في  
شبابي لا يزال يشقيني، شيئاً ما لا يزال عالقاً، متشبساً  
بركن قصي يأبى أن يرحل، أن يتغير، أن يحل بعيداً  
صي

عرفت بأنني قد استشرفت كل محاولاتي المتاحة  
للحصول على السعادة في الحياة، عرفت بأن هذه  
المجهولة إن رحلت فجأة، سأفقد أهليتي في أن أكون  
إنساناً كاملاً.. بت أدرك بأنه سيطوى فيدي من الحياة لو  
تركتني... لكنني لن أطلب منها البقاء أبداً.. أنا  
رجل لا يطلب. أن رجل يأتيه كل ما هو مقتر له.  
بلا طلب، ولا سؤال.. ولا استجداء للقلوب.. لن  
أستجدي القدر يوماً، لن أسأله حباً ولا مالاً ولا  
مجداً.

قدّر لي أن أحيا شقياً بانتماء ومن دون انتماء.. أن  
أعيش فراغاً داخلياً، وأن أموت ممثلاً بالعراع.  
سأمضي مثلما قالت شاعرة فلسطين "لا أجرت هدفاً ولا

حققت غاية، صم نهايته خواء فراغ مثل البداية\* .. فهذا ما قدر لي ..

التقيت في عيد الشكر الماضي بأحد أشهر وجوه المجتمع المخملي البريطاني بحيث إننا حللنا كضيفين على أحد عمالقة الصحافة اللبنانية الذي أقام مأدبة " شكر " كبيرة تليق بمقام المناسبة وبمقام صيوفه أيضاً .. بعد حوار طويل عن السلام وإسرائيل وفلسطين وخارطة الطريق سألني "الضيف" إن كنت لبنانياً كمضيفنا المبدع ..

- قلت له باقتضاب: كلا، لست لبناني ..

- من أين أنت؟! ..

- الأرض كلها وطني، والبشرية أسرتي .. مثلما كان يؤمن فولتير ..

- قال مبتسماً: ألا تحب وطنك؟

- أجبت باقتضاب: ربما أحبه ..

- أتدري أن شكبير نساء يوماً إن كان أحد قد بلغ حداً من الرضاغة كي لا يحب وطنه؟ .. لو كان شكبير حياً لوجه سؤاله هذا لك ..! ..

- قلت له بسخرية: لو كان شكبير حياً لشفهم أسباب وضاعتي من دون أن يوجه سؤاله إلي ..

- قال ضاحكاً: إذا أنت لا وطني! .. وهل أنت لا ديني أيضاً ..! ..

- لا أدري إن كنت ستعتبرني لادنياً أيضاً .. أنا أؤمن بوجود الله حتماً .. قطعاً لست بملحد ..

- كيف تؤمن بوجود الله إن لم يقتضك أحد أديابه!

- قال مصطفى محمود أحد أشهر المفكرين العرب بأننا نعرف الله بضمائرنا لا بعقولنا، وضميري يشعرني بالله فعلاً ..

- لكنك لا تمارس تعاليم أي دين لله الذي تؤمن

بوجوده، فكيف تنتمي إلى الله بلا دين تنتمي إليه ..! ..

- والإنسانية دين جامع لكل الأديان يا عربي للذا اعتنقها! ..

حينها ابتسم سيد لندن ابتسامة اقتناع باردة، أما أنا فشردت بعيداً عنه .. مستشعراً ألماً خفياً بات يتفاقم في أعماقي، ألماً لم أهتم كنهه يوماً ..!

\*\*\*



التفتيتها أول مرة في ليلة ماطرة، خرجت من مكتبي  
قراءة الواحدة صباحاً إلى حانة قريبة.. ظننت بأن كأساً  
سيريج أعصابي وسيجعلني أسترخي بعد ليلة طويلة من  
المخاض الأدبي، لكن شيئاً ما دفعني لأن أخرج سريعاً  
من الحانة.. ظننت بأنني نسيت هاتفني المحمول في  
مكتبي فخرجت منها مسرعاً.. كان الجو ماطراً ولم  
أكن أحمل مظلة معي فركضت تحت المطر، وعندها  
ظهرت لي فجأة من شارع جانبي صغير فاصطدمت بها  
بقوة.

تناثرت أشياءها على الأرض وكاد كل ما أن يقع  
لولا أننا تمسكنا وساعدنا بعضنا بعضاً على الثبات..  
انحيت إلى الأرض لمساعدتها في لملمة أغراضها وأنا  
أعذر وهي تجيبني بالإنجليزية، لا بأس لا عليك..  
أنا أيضاً لم أنتبه إليك! استوفعتني الكتب التي كانت  
تحملها Beyond Good & Evil وThus Spoke Zarathustra  
بالإنجليزية لنهشته.. وملحمة جلجامش بالعربية..  
عندها رفعت عيني إليها، والثقت صيوتنا.. فشعرت  
بالحياة نجشاحني!.. غيبل إلي أنني أشعر بروحها تغادر  
جسدها وتلبس جسدي!.. ظللنا قراءة الدقيقتين نتأمل

بعضنا بعضاً على الأرض وتحت المطر من دون أن  
يرمش لنا جفن!..

- سألتها بلهشة وبالعربية: أألتينا قليلاً..؟

- أجابني بعينين لامعتين، أظن بأننا فعلنا

- متى؟

- في عصر ما

- أتؤمنين بالكارما؟..؟

- أظن بأنني بت أؤمن بها!

عندها ابتسمت هي وابتسمت أنا ابتسامة لا شك  
هندي من أنها كانت أصدق ابتساماتي على الإطلاق!..  
مددت يدي وساعدتها على الوقوف أخذت أتأملها  
تحت عمود الإنارة الذي كنا نقف بجواره.. بشعرها  
الأسود المبلل.. وعينيها السوداوين اللتين كانتا تجاهدن  
للبقاء مفتوحتين تحت انهمار المطر.. كانت ترتدي  
معطفاً أحمر طويلاً، وشالاً صوفياً ملوناً يحيط بعنقها..  
وعلى رأسها قبعة صوفية صنعت من قماش الشال ذاته..  
وخلف ظهرها تظهر حقيبة جلدية سوداء خاصة بحمل آلة  
الكمان.

- قلت لها وأنا أنامل وجهها: أندركين كم وجهك مريحاً .

- رفعت حاجبها بلحشة ومن ثم قالت ساخرة:  
مريح!.. لكم تجيد الغزل!..

- سألتها مبسماً: أمطرتك السماء...!؟

- ربما!.. ألم يتساقط السحاب يوماً "أي حزن يبعث المطر"؟..!؟

- فلتنق على "أي حب يبعث المطر"؟..

- الفصائد نصر من مقدسة، لا يحق لأحد بأن يمسها أو يتصرف بها!..

- تبدين ماطرة جداً..

- بل عاصفة للغاية .

- ألتفتي مجدداً ..!؟

- من يدري!

- أين!؟..

- قد نلتقي في عصر آخر..

- وقد لا نلتقي!..

- ألا تؤمن بالكارما؟

- أؤمن بها فعلاً!

ابتسمت ابتسامة ذات معنى، وتركتني خلفها من دون أن تعقب، تركتني أرقبها وهي تبتعد عني كملاك أبيض تحيطه الغيوم والضباب، ملاك يحتضن بذراعه ملحمة سومرية عريقة، ويحمل كماً فوق ظهره ليختفي تحت المطر مثلما ظهر!

\*\*\*

تضحك هي في كل مرة أعبرها كم هي "مريحة" نظن بأنني أسخر منها . لكنني جاد جداً في وصفها في وصفها أنا لا أعيب أبداً . قالت لي مرة: صدقي لا يتغزل رجل بامرأة واصفاً إياها بالمريحة! لا يصعب عليك في اللقاء الأول على أقل تقدير...!..

قلت لها بحرج: كنت أقصد بأن جمالك مريحاً..

ضحكت حتى دمت عيناها، لذا بثت أخبرها كم هي مريحة في كل مرة أشاق فيها لصوت ضحكاتها.. لتضحك من أعماقتها.. وتهتز أعماقي معها فتطير في داخلي ملايين الحمام البيضاء . لتخلق وتخلق وتخلق وتخلق ولا تحط إلا بعد أن تركني وحيداً من دونها.

قالت لي مرة وهي تعبت بشعري: أتدري!.. تعلمت أن لا ألق برجل ناعم الشعر!.. ناعم الشعر دائماً ما يدعي الحقيقة!..

- وما هي الحقيقة؟!..

- قالت بسخرية. الحقيقة المطلقة الوحيدة التي أعرفها معك هي أنني مريضة!..

- قلت ضاحكاً. إرجعي إلى ذاك، فمعي داخل الإنسان تسكن الحقيقة!..

- لا أهمهم كيف تبدو أو غسطنيوسياً أحياناً، على الرغم من أن أوغسطينوس يماسس سقف الإيمان الذي لا سقف له عنده!..

- قلت لها: لا يهم، ما يهمني هو أن أماسس سقفك أنت!..

لكنني كنت أدرك بقرارة نفسي أنها امرأة لا سقف لها ولا حد، امرأة تمنجاور كل المستعقبات.. كل البديهيات.. كل المسلمات.. فأرجحك ما بين أقصى نقطة في البقيين إلى أقصى نقطة في الشك. امرأة لا قدرة لك على مجاراتها ولا رغبة لك في مناورتها.

فتوقعك في فتح الرغبة والمقدرة مجدداً لتتلاصق بك الأضداد لبعثها الطويلة ولا تصل معها إلى أي حل!.. هي امرأة تشير بي الفرح، مثلما تشير في حرباً لا يفهم، لكنني أمقت الحزن.. فالحياة لا تحترم الحزاني ولا تحترم أحزانهم، وأنا رجل يحتاج لأن تقف الحياة له احتراماً!.. أنا رجل لن يحس رأسه للحياة وإن حطمتني الحياة فحسبي أنني صمدت ولم أنهزم مثلما قالت سيدة فلسطين!..

أظن أحياناً بأن الكتاب يكتبون ليمروا من حلال روايتهم رسائل خاصة لمن عبروا في حياتهم!.. لذا بث أجدها كثيراً في سطوري، أبت لها في سطوري الشوق، والحزن. والخيبة.. والخوف. والحب والغضب بلا إرادة ولا اختيار!.. نحن لا نختر ما نكتب ولا نخلفه. نحن نقل الكلمات على الورق بطريقتنا، بصياغتنا. فالكثابة وحي يوحى إلينا من حيث لا نعلم، لكن الكتابة هي صوتي الصارخ. وفي الحب نحتاج لأن نصرخ بأعلى أصواتنا لنحيف القدر ونتحدى العالم، حتى وإن بعت أصوات كثيرة بلا نتيجة ولا فائدة!..

يحبيل إلي أحياناً بأن الأقدار تسرق من أمواتنا التوقعات لتدوّن لها كأحداث مستقبلية. لذا بثّ حرصاً جداً مع لقدر.. أصبحت لا أتفوّذ بأمور قد يخطئها من فمي ليقبلها في دفتر المستقبل ويحققها من دون رغبة فعلية مني بأن تتحقق!..

فولتير الذي كان يؤمن بأنه "لا يضيرهُ أن ليس على رأسه تاج ما دام بيده قلم" كان يدرك بأن الكتابة هي سر الخلود، كان يدرك بأن أعمالنا الأدبية هي التي تحلّلنا وإن كان الخلود لا يحقق لنا في حياتنا السعادة.. فالوجع هو طريق العظماء.. الشقاء يكتب على كل مبدع، لأن للخلود قانونه يجب على العظيم دفعها.. فلا خلود بلا ثمن!.. ولا إبداع بلا شقاء.. السعادة لا تدفعنا لأن نكتب أدباً على الإطلاق!.. الأدب هو ما يحرّتنا، ما ييكينا.. الأدب عميق الجذور في فلسفة البكاء..

حينما غادرت الرياض قبل عقدين، كنت مؤمناً بأن البكاء من شيم النساء.. لكن الحياة علمتني أن البكاء من شيم الأسوياء.. وإن كنت لا أظن نفسي سوياً، لا

أظن ولا أهتم!.. فمن يكثرث لأن يكون سوياً في زمن لم يعد للأسوياء فيه أية مقاييس!.. في هذا الزمن، نحن لا نميّز ما بين الأسوياء والمنحرفين.. فمظاهر الوعين باتت تشابه، وسلوكياتهم تكاد أن تصبح ذاتها.

أظن بأنني قد تجاوزت فكرة أن أعيش لأن أثبت للآخرين بأنني سوي كما يفعل كل رجال العرب الذين يقضون حيواتهم ليشبّوا لمجتمعاتهم أنهم أسوياء.. وكأنهم يولدون وهم موسومون بهذه التهمة التي يتوجب عليهم إنكارها وإثبات براءتهم منها..

أما أقرّ، أصرّف.. وأتساهل بأنني أمارس بعض السلوكيات اللاسوية!.. ولا تجعلني ممارستي لها، لا تحيطني ولا تنقصني.. فالرجولة لا تحتاج إلى برهان.. بينما الإنسانية تحتاج لأن تبرهن عليها في كل لحظة!.. أن أمارس بعض السلوكيات اللاسوية لا يعني أنني رجل لا أخلاقي، ولا ينقص من إنسانيتي شيء، على العكس أظن بأنه يدعمها بشكل ما.. وأنا أقدس كل ما يدعم إنسانيتي..

في ليلة ما، سألت صديقة كاتبة، لماذا تكتين؟..

أجابتي: لأن الكتابة مؤلمة وألمها يشعرني باللذة!..

ابتسمت حينها، وسمت!.. كنت أفكر لكم يتقاطع

الجنس والكتابة معاً، فكثر في حبي الكتابة التي ما أن

تجتاحني حتى أعمى عن كل شيء عداها، مثلما أعمى

عن كل شيء عدا الجسد الذي بين يدي علماً تشابني

حبي الرغبة!..

سبق أنا في الكتابة مثلما أبا سبق في الحب!..

مثلي كمثلي معظم الكتاب. فمعظمهم يتزودون بالكتابة

للحب، ويتزودون بالحب للكتابة!..

صديقتي التي يشعرها "ألم الكتابة باللذة" هي ذاتها

المرأة التي تتلذذ ألماً في مرائش توحش فيه وتتحدى فيه

عن كل شيء عدا أنها امرأة!..

الكتابة توحش، جموح، بربرية.. ثورة، انقلاب

وعشوائية!.. الكتابة اعتناق وانعتاق!..

اعتناق مع ذواتنا وانعتاق منها، همجية تجمع ما بين

الألف والتاء والعين والقاف بكلمتين لهما الحروف

الأبجدية ذاتها!.. ومعنيين لا يجمعهما إلا حالة الكتابة

فقط!..

أما لا أكتب لأثبت طهرتي ولا لأمارس ههري!.. أنا

أكتب لأنفسى، لأعيش، لأنام وفي غلدي شيء

ينتظري!.. الموسيقى والأدب هما كل ما أملك في هذه

الحياة!.. لكن أقدار الكتاب والموسيقين شقية!.. شويان

الذي توفي في عامه التاسع والثلاثين ومورارت الذي

توفي وهو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره كانا

موهوبين!.. موهوبين جداً وكانت الموسيقى هي الحياة

واللذة وأجمل الأحلام بالنسبة لهما!.. لكن الموت لم

يمهلهما طويلاً وكأن الموت ينتشل كل من يشيع في

الحياة!.. النشوة!.. والسمو!.. والروحانية والألق!..

أما اليوم أعرف بأن الأقدار التي نعتقدنا عقولنا بالحب

والفن والأدب هي أقدار تستحق أن تحترم!.. أنا اليوم

أدرك أن الكتابة هي ضرب من ضروب الجنون، لكن أن

تشاطر حياتك فناءً أو كاتبةً جامحة، جنون لا يصاحبه

آخر!..

دائماً ما أفكر بواسيني الأعرج الذي تساءل في طرق

الياسمين "كم هو مصن أن تعشق امرأة فناءً أو كاتبةً

مهووساً بالحياة!.. أفكر!.. ألم يلمس يوماً أديب

الجزائر الكبير كم هو مضن أن يعشق رجل فتاة أو كاتبة

مهورسة بالحياة؟ أم أنه مثلي، يرى بأن العنانات والكاتبات هن اللاتي يسببن للحياة التعب والجنون والهوس؟..

تذكرت جهاد، الذي سأله مرة في ليلة ضيق..

.. ما العاقل بين النساء والجنون؟..

مد جهاد يده إلى كتفي مسكاً بشمرة عالقة على معطني الشتوي، ورفعها أمام وجهي قائلاً باختصار:

.. شمرة!

ولم يكذب جهاد فيما قاله أبداً، عالساء هن اللاتي يتسببن لنا بفقدان عقولنا.. هن اللاتي يسرقن الواقع منا، ويجردننا من كل يقين.. النساء لسن إلا أحد مسببات العتة، وألذ وسيلة للمتعة، أمرٌ جروحنا وأحرق لحظتنا.. إيماننا وكمرنا، طاعتنا وخطايانا..

الساء هن اللاتي يشكلن حيواتنا، وهن اللاتي يتشكلن فيها فيمترجن معها بخضوع كادب، حتى نتيقن من أننا من خلق هذه الحياة ومن أدارها بسذاجة رجولية لا تضاهيها في الدنيا سذاجة

الساء في أقصى درجات الحب يعمين وينهرون، لكن الرجال في أقصى حالاتهم يجنون! في كل قصص

التاريخ لم أقابل قصة جئت فيها امرأة بسبب الحب.. النساء وعلى الرغم من تطرفهن العاطفي إلا أنهن يحافظن على عقولهن حتى في أكثر حالاته حدة.. في الحب قد تفرط المرأة بسمعتها، بسعادتها، بكرامتها وبكبريائها وحتى بعائلتها.. لكنها لا تفرط بعقلها أبداً وإن لم تستخدمه.. وهن غالباً لا يستخدمن عقولهن في الحب.. بعض النساء يتسببن باعدام رغبة بعض الرجال للحياة، وبعضهن يزدن الرجال تمسكاً فيها.. وحييتي خليط من النوعين، فيها أموت ولها أعب.. بنيتها أتوق إلى موت يتشلي من عذابات الشرقي، وبوجودها أخشى أن تمر لحظات عمري سريعاً فأصلي لها لأن تمهل.. يقال بأن عمر علاقات الحب المفتوحة أطول بكثير من عمر الزواج.. لأن حالة التوجس من الخسارة تبقي العلاقة في أوج حالاتها.. لكن حالة التوجس هذه تفقدنا القدرة على النوم وعلى التنفس.. حالة الخوف من الفقد تدحلسا في دوامة اللااستقرار، فنمشي حفاة فوق سحير الشوق، وننلظى ببارء حتى نحترق تماماً ونفقد الإحساس بكل شيء..

وأنا رجل يحفيه العيش بلا إحساس، أنا رجل لا



يبقيه حياً سوى مشاعره مشاعري هي التي تجعلني  
أحرف وأكتب.. وأنا لا أحرف إلا ما أتشوق لسماعه  
ولا أكتب إلا ما تغزني قراءته..

"if there is a book that you want to read it, but hasn't  
been written yet, then you must write it"

أنحس مقولة Toni Morrison المقوشة بدقة على  
محفظة سجائري في كل مرة أحتار فيها فيما سأكتبه  
يوماً.. لا أعرف لماذا نقشت هذه المقولة على  
المحفظة.. يحيل إلي أحياناً أن مقولة "عبقريّة" كهذه  
من الواجب أن تنقش على مبنى أهرق المكتبات  
العالمية، وليس على محفظة سجائر بلاستيكية.. أظن  
بأنني اخترت أن أنقشها على محفظتي لأنها دائماً ما  
تكون على مرمى من عيني لأقرأها كثيراً، ولتلهمني  
دوماً..

لكنني اليوم لا أعرف ما الذي أريد قراءته حتى  
أكتبه.. اليوم أنا على مشارف صمغاتي الأخيرة.. في  
رأسي مئات الأفكار التي تزداد اصطداماً ببعضها يوماً بعد

يوم وهذه الثورة لن تجعل روايتي هائجة محسب، هذه  
الثورة تكاد أن تفقدني عقلي.. هذه الثورة تجعل أعصابي  
في حالة غليان، تجعل أفكارني تستعر ومشاعري تتأرجح  
بين أقصى التطرفين، بين الحدة واللين، بين الصلابة  
والهشاشة.. أ مشاعري المتطرفة جداً في شتى  
حالاتها..

عندما أكتب، أشعر وكأن عيناً ثقيلاً يجثم فوق  
صدرني، الكتابة تشعرنني وكأنني في سباق "ماراثون"  
طويل، أعود فيه وأعود وأعود حتى أصل إلى خط  
النهاية وأنهار..

في كل مرة أنتهي فيها من كتابة رواية ما، أصدم  
بخسارتي لجرح كبير من وذي وكأنني لا أقتات أسماء  
الكتابة إلا على الحروف والكلمات.. حالة الكتابة لا  
تدخلني في حالة من العزلة فقط حالة الكتابة تفحمي  
في مواجهة صارية مع مشاعري وأفكاري، لذا أنغمس  
كدياً فيها من دون أي مراعاة للجسد الذي يضم روحي  
ويقيها ناطقة..

في مرحلة الكتابة، لا أشتهي الطعام أبداً، أدهن  
بشراهة، أقرأ بعشوائية وتشتت أحرف بيريرية قصوى..



ولا أدوق طعم النوم إلا بعدما أتمل أو أنهار فوق اليباب  
لأستيقظ بعد أربع أو خمس ساعات وآثار مفاتيحه قد  
تركزت آثارها على ملامح وجهي المرهق..

هذا الجنون الذي أحيته بزداد اضطراباً.. لكنني  
لست بقادر على أن أكتب جماع جنوني.. في الكتابة أنا  
لا أتحكم بنفسي أبداً، قوة خفية تتلاعب بي أثناء الكتابة  
فأغدو بوهيمياً للعابة، لكن هذا لا ينجيني، فلطالما  
آمنت بأن وحي الكتابة ما هو إلا حالة من حالات  
السحر الكتاب ما هم إلا مجموعة من الممسوسين،  
ومن يصاب بمس الكتابة لارقية تشفيه ولا علاج ينقله  
من ذلك المس..

وأنا ممسوس جداً بالموسيقى والأدب، بوجهي المن  
الجميل الذي لا أفهم لماذا يباهتني في الوقت ذاته  
دائماً، حينما أكتب.. تتراقص فوق رأسي النوتات  
الموسيقية، وعندما أعرف.. يثور بركان أفكاري ولا يهدأ  
إلا بعدما تسيل أفكاري جبراً..

لكنني وعلى الرغم من 'شوباني'، ووفائي وولائي  
للعظيم شوبان.. إلا أنني بت أحسن مؤخرًا للألحان

الشرقية.. الألحان التي لم ولن يقدر العرب على أن  
يخلقوا شيئاً دافئاً باستثناء تلك الألحان..  
أنوق لصوت العود والقانون.. للموشحات  
الأندلسية.. للمقامات النهاوندية، للنوتات المشعة..  
بعيداً عن أجواء باخ، وهاندل، وموزارت وبيتهوفن..  
بعيداً عن سيدي شوبان..

لا أعرف إن كان 'توفي' الحاد هذا هو مؤشر خطير  
أم لا، لكنني بت أخشى كل ما يربطني بشرقيتي،  
بحروبيتي.. لكن الموسيقى لا جنسية لها ولا جذور  
قومية حتى وإن نسبتها إلى رقعة أو عرق.. فلماذا  
أخشى الموسيقى الشرقية وكأنني أخشى أن تستلجني  
وتعز بي فأعود إلى حب أظن بأنني قد اجتنته من قلبي  
كلياً..

أحن إلى 'أيها الساقى' لابن زهر.. و'جاذك  
الغيث' لابن الخطيب و'لما بدأ يثني' للذي لم  
يعرف..

أشاق إلى موسيقى ذات شجن، إلى قصائد روحانية،  
إلى موشحات صوفية.. وإلى شعر ماجن.. أنوق إلى  
ليالي طرب عربية، دافئة وحنونة.. وحادة الحزن..

كم هم ملعونون العرب لأن شيئاً من أراضيهم ومن تاريخهم يظل فيهم مهما حاولوا استئصاله.. المروية مرض وراثي لا يرجى برؤه، مرض تتعاش معه أيما كما وحيثما ذهبنا، فلا قدرة لنا على التخلص منه حتى وإن رعبنا وسعينا وتطهّينا..

وموسيقى العرب نوع من أنواع السحر الذي لا يفهم ولا يحل.. وأنا رجل لا يسحره إلا العزّاء..

تأخذني بعض المقطوعات لما وراء هذا الكون، بعض المقطوعات برزخية بلا أدنى شك، عندما تستمع إليها تشعر بأنك عالق في مساحات ممثلة النهايات حتى لا تنتهي..

بعض المقطوعات تخلصنا.. وتذبذبنا.. ونحيينا..! أذكر كم كانت ليثي روحانية حتى درجة البكاء عندما استمعت إلى مقطوعة Silk Road لكيثارو لأول مرة.. شعرت ليلتها وكأنني عبرت من خلالها رقع مروراً بالقيدوم والماروم وأرقلون وهيوف والعروس وحتى السماء الحجماء.. ليلتها أقسم بأنني شعرت بمروري بالسموات السبع كلها.. كلها..

واليوم، لا أزال أستمع إلى طريق التحرير بالشبقي الروحي ذاته.. والحاجة ذاتها..

الموسيقى حالة لا تفهم.. لا تفهم! حالة تجعلنا شعر بكل ما يمكن أن نشعر به.. الموسيقى تجرّنا من كل ما هو مزيف.. تزيل عنا التزييف، التدليس والبهرجة الكاذبة.. الموسيقى حالة من حالات الخلق الإنسانية كالكتابة تماماً؛ فتأليف المقطوعات كتأليف الكتب.. كلاهما يتطلبان منك أن تتوحد مع ذاتك، أن تنسلّ من كل شيء عندك أن تتحرر روحك من جسدك فتتسامى حتى تبخر.. فتصبح أثيراً ولا شيء سوى الأثير..

وهي مثلي.. مريضة بالموسيقى مثلي..! لذا أهديتها يوماً مجموعة إصدارات الموسيقى الهولندي العظيم أندريه ريو الكاملة.. كنت أعرف أنها تحب الكمان.. ليلتها كنا نسير معاً، وقد كانت ترتدي مستاناً أبيض كعروس متوجة.. كنا على طاولة الطعام.. نتناول الزيتون والجبن الأبيض بالشوكة والسكين برقي لا يليق بمن يتناول الزيتون والأجبان كمشاء.. مستمعين إلى إحدى مقطوعات شوبان بصمت مشير

- قالت: مقطوعة جميلة!..

- سألتها: أتعرفين لمن تعود..؟

- أجابت ابتسامة من دون أن تنظر إلي: Nocturne in

C sharp minor by Chopin..

أعشتني جداً وأثارتني كثيراً!... فلا شيء يضاهي امرأة تحب الموسيقى وتفهمها. وربما تخلفها!.. بل لا شيء يضاهي امرأة تميز مقطوعات شوبان وتترك على أي نوتة موسيقية عزفت!

- قلت: عندما رأيتك أول مرة، كنت تحملين كماماً على ظهرك!..

- ألا تحب الكمام؟

- أحبّ الناي!..

- أشارت إلى أصابعي: واليانو؟!..

- سألتها مبتسماً لفطنتها وقمت متجهاً إلى غرفة المكتب: بالمناسبة!.. أحضرت لك هدية منذ فترة طويلة.. لكنني أنسى في كل مرة أن أعطيها إياها!.. فلنقل إنك ترحلين قبل أن أعطيك إياها!..

- قالت بسخرية: ربما لا تجديني بعدما تعود!..

أحضرت هديتها التي قبعت داخل مكتبي لأسابيع

طويلة بانتظار أن تبقى لتأخذها، وضعتها أمامها من دون أن أتكلّم وهدت إلى مقعدي..

رفعت حاجبيها بتعجب عندما فتحت صندوق الهدية، أخذت تقلّب ألبومات أندريه ريو بلهشة..

- أندريه ريو!..

- حدسي أنبأني أنك تهوين الفانس!..

- ولما الفانس بالذات؟!..

- قلت لي ذات يوم ونحن نستمع إلى "ليالي الأندلس"

في فيينا! إنك تفضلين هذا النوع من الموسيقى، ولا يجيد أحد الفانس كأندريه ريو..

- ومن أفضل أيضاً؟!..

- أتعرفين من أفضل أنا؟!..

- أمممم، شوبان، فولتير، فيروز.. درويش،

فرائك سيانتر، البيتر، الشاي الإنجليزي.. كنزات رالف لورين.. وبلد أرماني!..

- ضحكت: أنتشين ملايسي؟

- شيء من هذا القليل!..

- هذا يسبح أنك لعة!..

- ابتسمت ابتسامة ذات معنى: وماذا أيضاً!..!..

اثكأت على مرفقي ممسكاً بدقني . فلرأ . أمم ..  
تعرمين الكمان .. تصلين صلاة لا أعرفها !  
سعدون جابر، عراقة .. وتعتقن فلسفة بنشه ! ..

- وماذا بعد؟! ..

- ورسولة .. 1 ..

رفعت حاجبها: رسولة شك؟! ..

- رسولة حب وإلهام ويقين ..

- لكم تجيد العزل!

نظن هي أنني أجيد الغزل، ولا تترك كم تجيد  
البعث، بعث السعادة والنشوة والأمل .. لا تدري كم  
تشمري بالحياة .. أنا التواق إلى الحياة والعارق فيها  
حتى آخري المتعطر والجائع لكل لذاتها على الرغم  
من انغماسي فيها ..

يؤمن الكثيرون بأن الانغماس بأمر يجعلنا نشبع به،  
لكنني أظن بأن الانغماس والنشبع لا يحكماهما قانون  
ولا يؤيدان بضرورة الحال إلى نتيجة واحدة .. فمفهوم  
اللذة أشد تعقيداً مما يبدو عليه ..

نحن لا نصل إلى اللذة بتحقيقها لما نتوق إليه ونرغب  
به، فاللذة تكمن في الحرمان أحياناً .. كما أن للتحقق

والبوصول لذة ونشوة أخرى .. مفهوم اللذة معقد إلى  
درجة تتجاوز إدراكنا بكثير ..

أنا لا أفهم حاجاتي، لا أفهم لماذا أتوق إلى بعض  
المحذات .. وإلى الكثير مما لا يتوق إليه سواي ..  
أنا رجل تحكمه الأفكار الطارئة .. والرغبات الملحة ..  
والشروات التي لا تعهم ماهيتها ولا يعرف ما هو  
أساسها ..

لكنني وعلى الرغم من كل هذا، لا قدرة لي على  
مجارئها "هي" في جموح أفكارها وغلبان مشاعرها ..  
هي التي تثور بلا سبب، وتستكين من دون أن تترك لدي  
أدنى فكرة عن سبب سكونها المفاجئ بعد ثورة غضب أو  
حالة عتة طارئة!

أنا لا أعرف إن كان توق الرجال للنساء  
الغامضات المتنافسات هو توق فطري .. أم أن شيئاً ما  
يدفعنا نحو النساء اللاتي لا ندرك ما وراءهن، ولا  
يدركن أنفسهن ما يرغبن به فعلاً ..

يعتقد الرجال بأنهم أدكى بكثير من النساء، مع أن  
عالم النساء يظل بالنسبة إلى الرجال عالماً لا يفهم .. إلا  
أن الأنثى، وعلى الرغم من تعقيدها، تظل بالنسبة للذكر

هي الجنس الأدنى ذكاء، حتى في عالم الحيوانات الذي يبدو بأن طبيعة ذكوره لا تختلف كثيراً عن طبيعة ذكور البشر..

أفكر أحياناً بالفرق ما بين رجولتي وذكورتي.. الرجولة والذكورة يحكمهما الجدل الذي لم يحسم في عالم الشرق خاصة عند العرب المتصحمين "الرجولة" بوهمية..

تلقيت في إحدى السنوات طلبات تعيين كتاب جدد في الصحيفة، عرضها عليّ جهاد الذي يثق باختباراتي للمواهب الشابة، عرض عليّ طلباً مرفقاً ببعض المقالات لأطلع عليه..

عند قراءتي لنموذج الطلب المعبأ من قبل الكاتب، تفاجأت بشطبه لخانة الجنس المحددة بإما أنثى أو ذكر، وكتابه فوقها لـ "رجل" .. استوقفتني الكلمة التي لم أهمم ما الذي رغب الكاتب بإبصاله من خلالها..! فما معنى أن يكون جنسك "رجلاً" .. يومها، حاولت أن أنسج صورة في خيالي للكاتب الذي لم يرفق صورته الشخصية مع سيرته الذاتية، وكأن رجولته تعنيه عن أية ملامح..!..

عندما التقيته، كنت أبحث فيه عن "الرجولة" التي يزعّمها.. لم يكن في أفكاره ما يفتخر به كرجل.. ولم يكن جسده قوياً ولا ضخماً.. كان شاباً هريلاً بأفكار رجعية.. وأظن بأن أفكاره الصدئة تلك هي التي خيلت إليه برجولته..!

عندما خرج من مكنتي، تذكرت ورقة كانت قد كتبها لي.. فتحت درج المكتب الذي كنت أحفظ في داخله بقصاصات ورق كانت تتركها لي "هي" في الشقة التي كنا نلتقي فيها.. قرأت الورقة التي كتبت لي فيها.. "نفخت الروح في جسدي فاستيقظت قبلك.. سبقتك إلى الحياة هذا الصباح.. لذا سأهرع إلى الحياة قبل استيقاظك صباح الخير يا آخر الرجال المحترمين!.."

آخر الرجال المحترمين!.. من قال لها بأني آخر الرجال المحترمين!.. أنا لست آخرهم ولا أولهم ولا حتى منهم.. أنا رجل لا يفخر برجولته ولا يكثرث لها.. فلما تصرّ هي على أن تذكّرني بها.. أتستعزّي.. أم تفارلني أم تدعوني إلى التدهّر برجولتي المحترمة!..

هي التي تهرع إلى الحياة بثوق مثلي، لماذا تحاول

سلبني من الحياة وسلب الحياة مني .!.. لماذا  
تغيرني.. وكيف تشككني بكل يقين ١٩..

هي التي تسبقني إلى الحياة في كل صباح نقضيه معاً  
وكأنها تحشى أن تظل روحها بعيدة عنها وأنا الذي  
استيقظ في كل يوم على مفض.. وكأن روعي الكسولة  
تخشى أن تعاود جسدي . وأن تسكنه!..

تؤرقني الحياة على الرغم من ولعي بها..

الحياة اللغز، هي مجموعة من المتشابهات  
المختلفات المتناقضات، فكلنا نعيش الحكاية ذاتها..  
ولكل واحد منا حكايته الخاصة التي تشابه حكايات  
الآخرين وتختلف عنهم في الوقت ذاته.. نجتمعنا كدنا  
قصة واحدة بتفاصيل مختلفة، وتختلف قصصنا بتفاصيل  
متشابهة.. وتظل الحياة سرّاً لا يفهم مهما حاولنا  
استيعابها..

أنا وهي.. أحلم نحن أم رواية ١٩.. أحلم سسجتة  
الملائكة، أم رواية أختلفها لا ومني فهتني إلي!  
سألني مرة "هي"، قالت. لو افترضنا أنني لست

بشرية، هل نظن بأننا سنظل قادرين على أن نستمر  
معاً.. ١٩

- حتماً .

- وكيف سيكون ذلك ١٩..

- مثلما آس هيجل، فإما أن نجد حلاً وإما أن نصنع  
واحد..

ابتسمت هاني بال!.. أتصدق خرافة هاني  
بال..!

- هتيجل ليس بخرافة !.

- لأنه فرطاجي شرقي. ١٩

- بل لأن الأبطال الحقيقيين لا "يعرفون" هم  
"يؤسرون" . لكنهم لا يعرفون.

- أستؤسر يوماً.. ١٩..

- لا يؤسّر سوى العظماء..

- جونسون يقول بأن بعض الناس عظماء لأن  
المحيطين بهم صفار.

- أنا أريد قول ديكتر في أن العظماء الحقيقيين هم  
من يجعلون كل فرد يشعر بأنه عظيم.. وأنا حينما أكون  
معك أشعر بأنني كذلك..

والحق هو أنني لا أشعر بعظمتي إلا بوجودها أو عند إصدار أحد كتبي.. فعندما ينجح كتاب، وأقصد بالنجاح هنا هو أن تُباع منه آلاف النسخ وليس أن يقدره النقاد. شيء ما سيظل يرقص في داخلي حتى كتاب آخر.. شيء ما يجعلني ثملاً بنجاحي حتى نجاح كتابي الجديد أو فشله..

تماماً كما الحب، كلوحة الحب والفراق التي يظل العاشق متلطياً بها حتى حب جديد ينتشله من سكرة حبه القديم.. ليعود فارساً لحكاية حب جديدة..

حكايات الحب التي يمر بها خلال حياتنا، هي تاريخنا الجميل، تصرفاتنا الحمقاء.. أحلامنا الغبية، خيالاتنا اللامعقولة في الحب هي ما تضحكننا عندما نتذكرها في وقت لا يضحكننا فيه شيء..

الحب الحقيقي هو ما يدفعنا لأن نبسم على الرغم منا. مهما كانت ذكرى هذه الحب قاسية، مهما كانت حريئة ومرة. وكيفما انتهى هذا الحب يبقى الحب هو ما يضحكننا وما يجعلنا نبسم بعد التام جراحنا وعلى الرغم من الندوب..

لكن الحياة أحياناً تدفعنا لأن نتدوى المأ حينما تجربنا على أن نقدم على خيارات مرة.. وفي الحياة نمر بهذا المارق كثيراً.. وما يحلفه هذا الموقف/المأزق في دواخلنا لا يمحي أبد الدهر بل يبقى يقطاً، دائماً، ملتصقاً مهما مرّ عليه من الوقت.. هذه المواقف تجعلنا نقهر حتى نشعر بأن أرواحنا تكاد أن تفتق من الألم..

أنا أعترف بأنني أومن عندما أقهر.. تنهار قواي، وتنباط عضلة قلبي ويستكين لساي وتكسل أفكارتي.. وهذا يخيفني جداً، هذا يزيدني غيباً حتى أشعر بأنني ساموت من شدة الغين

دائماً ما أفكر في إن كنت أستحق فعلاً كل هذا الكم من الهم والقهر.. أفكر في إن كان الله يعاقبني على شيء لا أفهمه بل على أشياء لا أهنأها، لكنني لا أفهم، فكيف أقر بما لا أفهمه..!!

أشعر أحياناً أن الله لن يعاقبني على تصرفاتي فحسب، أشعر أحياناً بأنه سيعاقبني على أفكارتي وعلى مشاعري وعلى ما أحب وما لا أحب.. لكن الله أعدل من هذا، قلما تخالجنني هذه المشاعر أحياناً..!!



يقال بأن "أحلك الساعات هي تلك التي تسبق العجر"، لكن ساعاتي الحالكة تطول وتطول. ومجري الذي انتظره لا يزال بعيداً. فلا الظلمة خفت ولا بصيص النور لاح.. وخوفي من أن أظل أسير الليالي القائمة بانتظار صباح ينهكني. تماماً كعودتها التي لا تفهم، فهي عندما عادت بعد غياب تركت لي على الأريكة في "شقتنا" رسالة مسحبت الورقة بأصابع متلهمة ليطلعتني خطها المرسوم برشاقة، كتبت. "نقول أحلام مستعاصي إن الأشياء الحميمة نكتبها ولا نقولها، والكتابة اعتراف صامت وأنا اعترف أنني اشتقت إليك كثيراً، نلتقي!"

نلتقي!.. ما معنى أن نلتقي ومنى نلتقي!..!؟..  
انظرن أنني سأستمر كثيراً في لعبة التخمينات!..!؟.. وأن صبري لن ينقذ ١٩.

أستمع في أن تبقى علاقتنا ضيائية الملامح ١٩..  
ألا تحشى الغموض ككل النساء!..!؟.. أنككتني بهذا!..!؟..

لطالما شعرت خلال العقدين الماضيين أن الزواج هو صورة من صور العبودية، اعتبرته حالة من حالات

الشعامة الاختيارية. حالة ماروشية، بل أقصى حالاتها..

الغريب أنني لم أفكر في الزواج منذ أن غادرت الوطن، وعلى الرغم من مئات الفتيات اللاتي قابلتهن إلا أنني لم أشعر يوماً بأنني أرغب بالزواج من إحداهن، لكن حينتي قلبت كل توقعاتي وغيّرت جميع طموحاتي، فبت أحسن إلى أن يجمعنا بيت "حقيقي" لأن تفتح لي باب البيت عند العودة، لأن أغادر فراشي صباحاً وهي نائمة وأنا أدرك تمام الإدراك أنني سأجدها عند عودتي، وأنها لن تتركني أو ترحل..

الحب وحده هو من يدفعنا نحو "الإنسانيين" لأن نتحلى عن أي شيء ولأن نتخلى عن كل شيء مقابل من نحب وما نحب. فعندما هجرت الوطن، وتركنا العائلة محلاً كل انتماءاتي ورائي بلا ندم ولا التمتاعة.. فعلت هذا لأنني لم أعد أحب ما كنت ومن كنت أحبهم فعلته لأسى أحببت امرأة لم أتمكن من الحصول عليها، فلم يعد لدي ما يستحق الندم ولم يكن لدي ما أخسره.. لكنني أفكر الآن، في لو كانت أمي على قيد الحياة عند رحيلي.. هل كنت سأنجراً على أن أرحل ١٩.

أكنت سأتركها كما تركت كل الذين يمشون إليّ بلا تفكير 19

أنا رجل لطالما أحب والده على الرغم من كل مساوئه وعيوبه، لكن علاقة الحب التي تربط بين الابن وأبيه.. ليست كعلاقة الابن بأمه، الأم التي تظل نقطة الضعف الكبرى في حياة الرجل، حتى بعد رحيلها يعقود تظل ذكرى الأم ذات وقع.. وأي وقع..

اليوم أنا لا أعرف إن كان والدي على قيد الحياة أم أنه رحل.. لكن الرسائل التي تصلني عبر بريدي الإلكتروني المذيل في آخر عمودي الأسبوعي بالصحيفة تشير إلى أنه لا يزال حياً. الشائعات، واللمحات والانتهاكات والتهديدات التي أتلقاها من أقاربي ومواطني دولتي. كلها تشير إلا أن والدي لا يزال حياً. علو كان قد رحل لكنت قد عرفت من خلال رسالة حادثة ما..

أنخيل أن والدي لا يزال بعد قرابة العقدين من الغياب، رجلاً صلباً صارماً. قادراً على أن يتخلى عن أقرب الأشخاص إلى نفسه من أجل الحفاظ على رضا الجماعة! لكنني أفكر أحياناً، في أي الرجلين

أقصى.. 19 أنا أم هو.. 19. أهو الذي تخلى عن ابنه الشاب الذي لم يسع إلا لأن يتزوج من حبيبته.. أم أنا الذي قابلت تخليه عني بالتخلي عن كل شيء قد يربطني به.. 19..

والذي لم يسع يوماً لأن يمد لي جسور العودة بعد الرحيل، على العكس تماماً فأحوتني تكملوا، ومد سنوات طويلة، بنقل لعنات والدي وسبابه برسائلهم الإلكترونية المشحونة بالكراه والحقد والفضول من كوني أنتمي إليهم. وهذا ما زادني بعداً وما زادني تمرداً وما زادني تخلياً..

من أكبر الجرائم التي قد ترتكبها هي حق عائلتك وقبيلتك في مجتمع كذاك هو أن تختلف عنهم في أمر ما، فحبي لليلى كان معصية، وقراري بالزواج منها كان الخطيئة الكبرى.. إما الكتابة فهي الكفر الذي لن يعفوه لي أحد..

فإن تختار الكتابة بحرية في مجتمع كالذي كنت أنتمي إليه، يعني أن تعرض نفسك للتكفير والتهديد وللعمالة الرسمية واللا رسمية وللخطر.. فالكتابة مجازفة بالحياة والأمان والاستقرار والمال والولد.. وأنا

جازفت بكل شيء لأنني رجل حر.. رجل لا يملك ما قد يحسره يوماً.

اليوم، أظن بأسى رحلت لأعاقب عائلتي، ظننت أن غيابي سيجعلهم يموتون ندماً.. لكن رحيلي لم يحلّف إلا مريداً من المرض لي.. رحيلي أدى لأن أكون الجاحد الأكبر.. أما ما فعلوه فلا يعد إلا حفاظاً على أواصر العائلة وعلى لحياتها.. ما فعلوه بي لا يعتبرونه خطأ ولا يعدونه جرماً إنسانياً.. عندما اقتدوني.. اقتدوني لمصلحة العائلة، وهذا يبرر لهم ما فعلوه حتى وإن كان الثمر سعادتني ومصيري ومصلحتي.. اليوم، وبقدر ما أكره تلك العائلة، بقدر ما أصبحت تواقاً لباء واحدة.. أظن أنني لم أفكر في الزواج قبلاً لأنني لم أرغب بتكوين عائلة قد أضلّم أحد أعضائها يوماً بقصد أو حتى من دون قصد.

لم أفهم يوماً كيف يرتبط الرجال.. ولا كيف يجرؤون على أن يشجبوا أطفالاً يتدخلون إن لم ينحسروا بمصائرهم.. لم أفهم كيف يتعاملون مع كل هذا الاستبداد وكأنها غريزة إنسانية.. ومع أنني قررت يوماً أن أتزوج ليلي، لكن قرارى ذاك لم يكن عقلانياً

أبداً، كان قراراً عاطفياً لا يستند إلا إلى مشاعري الجياشة ورغبتى المتأججة بها..

أعرف اليوم أنني لو عدت إلى الخلف، لم أكن لأتزوج ليلي.. لأن قرارى بالزواج منها كان ساذجاً، حبي لها كان غراً لأنها كانت تجربتي الأولى، التجربة التي عندما بدأت، بدأت جامعة وانتهت ذابحة.. لكن هذا لا يعفر لعائلتي فعلتهم ولا يخفف من حجم تضحياتهم الصخمة والرهقاء بي..

قرأت يوماً أن الإمبراطور ظهير الدين بابر، دعا الله عند مرض ابنه بمرض مميت، أن يرفع البلاء عنه وأن يوقعه عليه.. دعا الله أن يفتدي ابنه في المرض فاستجاب الله لدعوة ملك المقول العظيم.. فشفي الابن ومرض الأب.. وعندما حضر الأطباء لتطبيبه من كل أرجاء إمبراطوريته الممتدة الرقعة.. رفض بابر أن يحاول أحد معالجته، وقرر أن يفتدي ابنه الذي رجا الله كثيراً أن يشفيه، فاستسلم للموت من دون أي مقاومة.

فكرت يوم ذك بالفرق الشاسع بين والدي وبين ذلك الرجل.. والدي لم يكن عظيماً أبداً، والدي كان رجلاً عادياً يعتنق العادات، يتجمل التقاليد ويمتد الجماعة،

وفي اللحظة التي كان قادراً فيها على أن يكون عظيماً في نظري بوقوفه في وجه كل شيء من أجلي، تنازل عن أبوته وانساق مع ركب القبيلة فوقف معهم أمامي مانعاً زياي من السعادة..

طوال الأعوام الماضية لم أكن أفكر في كل هذا، لم أتمق فيما جرى بيني وبين والدي، ولم أفكر كثيراً فيما خلّفته خلقي ظننت أنني تجاوزت كل ما حدث، لكن حينني عندما جاءت جلست معها ماضياً جارحاً، وحاضراً جامحاً وشيئاً من طلاس المستقبل.. فوجدت نفسي عارياً أمام تيار جراحي، وجدت نفسي مثخناً بالماضي الذي لم أشف منه والذي ظننت بأنني قد هربت منه برجلي هت..

فيكتور هوغو كتب يوماً أنا تقصي نصف العمر ونحن نتظر لقاء من سنحبهم والنصف الآخر في وداع الذين أحببناهم، وأنا انتظرتها نصف عمري، ولا أظن بأنني قادر على أن أقضي ما تبقى لي من عمر في وداعها

لم أكن أظن يوماً أن حب عمري سيحيي بهذا الشكل، لم أتوقع أن ينشأ بهذه الصورة، أن يحلق بهذه السرعة، وأن يحاك بهذا الغموص، والترقب والانتظار

والصمت لكه جاء هكذا، وتجربتي الطويلة في الحياة، وسنوات العيش.. وتاريخ نسائي وأحزائي وتلّوق كل صنف، يجعلني أؤمن جيداً أن هذا حب العمر بلا جدال.. وأني إن خسرتها فأسر حب العمر.

عندما قرأت رسالتها شعرت بأنني عالق ما بين الحزن والسعادة، ما بين الأمل واليأس.. شعرت بأنني غير قادر على تحديد مشاعري ولا على ترتيب أفكارني، شعرت بأنني مبعثر المشاعر ومشّت الأفكار، ولا نقطة ارتكاز استند إليها أو نقطة ثبات أستقر فيها.. لكسي تمسكت بأمل اللقاء، فجلست في الشقة استظر هطولها... حتى جاءت!..

جاءت في مساء ذلك اليوم، أدارت المفتاح ودخلت وأنا جالس على الأريكة "انتظر".. دلفت بعينين لامعتين، صارختين، هائجتين.. أما أنا فبرغم كل حراقتي، لم أفق لاستقبالها، واكتفيت بأن ألقت بصمت معاتب غاضب ثائر... اقتربت مني، وجلست أمامي على الأرض، سحبت ديوان درويش الذي كان بين يدي وأمسكت بهما، وقالت بصوت شعرت به كصوت وحي

مهيب وهي تلمس فتحي بطرف ميايتها - أتدري بمن  
يذكّرني صمتك هذا..

أخذت أتأمل ملامحها بجوار مكابر ولم أرق،  
فاسترسلت قائلة بفتح. بجورج إليوت! قال يوماً إنَّ  
العاطفة المتطفنة ليست إلا إحدى سمات الحزن!  
- أنظيتني متطفن العاطفة!؟..

- بل أظنك متوقّد العاطفة حتى أنني أكاد أشعر  
بلهبها يلحمني على الرغم من أحزانك..  
- أريدك إلى الأبد...!

- كلاماً لا يؤمن بالأبدية.. فلماذا تظن بأن رغبائك  
ستحل؟!..

قمت من مكاني، وأدركت سخان ماكينة صنع  
القهوة. قلت لها ببرود وأنا أضغ قوالب السكر في  
الكوب: بالمناسبة! - جورج إليوت امرأة وليس  
رجلاً..!

قالت بعصية: وليكن!..

قلت لها من دون أن ألتفت: أأصابك العصية في  
غيابك..!؟..

- أأصابك اللامبالاة في غيابي!؟..

حملت كوب قهوتي وجلست على أريكة بعيدة عنها،  
قلت.. مللت!.. مللت مزاجية حضورك - وذبلية رغبتك  
في الحضور.. مللت مجيئك وغيابك المفاجئين..  
- لئلا أقمت بأنك تربطني إلى الأبد...! - والآن  
تقول بأنك مللت..

- مللت هذه اللعبة!.. مللت ترقيبي إياك وجهلي  
بك

- أترغب بالمجازفة بي!؟..

- بل أترغب بالمجازفة معك!..

أخرجت محمطة سجاثرها، أشعلت واحدة وأخذت  
تنفث دخانها بعصية ومن دون أن تلتفت إلي..

قلت لها بحزم: أنا هدام..!

التفتت بلهشة: ماذا!؟..

- قلت لها مصرّاً: هدام!.. اسمي هدام..

- وهل أنا في عالم آخر لأجهل من تكون!..

- ومنذ متى وأنت تعرفين من أكون؟

- منذ اصطدامنا الأول..

قلت لها بسخرية تعرفت علي طمعاً بما ورائي

إذا!..

- بل طمعاً بما أنت وراءه 1.

- أئن تخبريني بما أنت وراءه وبما وراءك؟ 1.

- أشاحت بوجهها بصيق وقالت بصوت منخفض: أيا ولادة 1.

- قلت بحروف بطيئة محاولاً استيعاب الاسم ولادة 1.

- أجابت بحرج لئيد. وماذا كنت تتحيل أن يكون اسمي؟ 1.

- وغرك من عهد ولادة

- سراب تراءى ويرق ومض 1.  
ابتسمت بصيق لم تجد إخفاء: لا يعني كوني ولادة أن تكون ابن زيدون 1.

- ضحكت بارتياح لا أنا ابن الماصم من إحدى قرى الرياض 1.

- قالت وهي تشعل سيجارتها الثانية: أنا من قرية العمارة العراقية 1.

- ابتسمت ولم أرد، فاسترسلت. لا أظن أن عراقيتي تدهشك 1.

- وأين تقع هذه " العمارة " 1.

- قريباً من الأحواز 1.

- أشيعية أنت؟ 1

- صابئة 1

- سألتها مندهشاً: صابئة 1

- قالت بسخرية مريرة: أنا متأكدة من أنك لم تقابل صابئاً أو صابئة خلال حياتك 1.

- الحق أنني لم أتخيل أنني قادر على مقابلة أحدهم حتى مماتي 1. ظننت أن وجودهم بات مستحيلاً.

- أيا أيضاً، بت أظن بأنني لن أقدر على مقابلة أحدهم 1. ليس هنا على أقل تقدير 1.

- وكيف جئت إلى هنا؟ 1.

- مثلما جئت أنت 1.

- أنا هريت، جئت هارباً من أسرتي 1.

- وأنا جئت لاجئة إلى هنا هرباً من وطني 1. يبدو

أن كلينا بلا وطن ولا عائلة 1.

- كلانا هاريان إذًا 1.

- الحق هو أنت مشبوقان يا هنام ولسا بهاريين،

أمثالنا يتلون ولا يهرون 1.

- أخذت أناملها مبتسماً، كان اسمي عذياً بصوتها،

خبرني إليّ وكأنني أسمع اسمي لأول مرة في حياتي كلها.. لم أكن أدرك أن الأسماء تمنحنا حميية لا تقدر بلذًا.. شعرت بالحب يتدفق في أوردتي وبالمساحات التي كانت تفصل بيتنا وتفصل وتفصل وتفصل حتى تكاد أن تعلم..

سألتني: لما صحت؟..

- أظن بأنني أقع بك..

- ألا تخشى اختلافي عنك؟

- ألم يقل عمر بن أبي ربيعة بأن الصد يظهر حسنه الفذ...!

- لا حسن في تضاد الأديان..!

سألتها: أتؤمنين بدينك..؟

- ديني هو علامتي العارقة، لذا سبطل هناك شيء ما يربطني به ! . شيء يميزني على الرغم من عدم حبي له.

- فلتعلميني إياه إذًا!

- ولما يفرحك تعلمه..؟

- لأنه يعنيك..!

ابتسمت: لكنني لا أستطيع تعليمك إياه.. عالدين الصابني للصباية فقط..

- رؤوس أعلام يا امرأة، رؤوس أعلام..!

- نحن نصلي ثلاث مرات في كل يوم، صلاتنا قريبة من صلاة المسلمين لكننا لا مسجدة ونتوجه إلى الشمال عندما نصلي، وفي صلواتنا نتلو آيات من أحد كتبنا، بصوم ثلاثة وثلاثين يوماً من كل عام لكننا لا نصوم من كل شيء. نتصق مثلما يتصق المسلمون.. نحرم الزنا وشرب الخمر والكذب والظلم، نؤمن بالقضاء والقدر.. بالبعث وبالجنة والنار..

- أتحدثون المندائية هي ما بينكم؟

- كنا نحدث المندائية هي دارما كي لا ننساها، فوالدي كان مومنًا..

- مومنًا..

- هو شيخ من شيوخ الصابنة..

واسرسلت ساخرة: لكنني لم أقابل صابنيًا يتحدث المندائية منذ أن غادرت العمارة، ربما لأنني لم أقابل صابنيًا منذ غادرتها..

- أنقرأين كتابكم بالمندائية؟



- أنا لا أحفظ بالكثرا ربه ولم أقرأه يوماً، لكنني  
أحفظ منه ما أصلي به.. علمني إياه والدي، وأتلموه  
بالمندائية بطبيعة الحال..

- فلتعلمني إياها!.. فلتكن لغتنا..

قامت من مكانها، ووقعت على شرفة الشقة قالت  
من دون أن تلتفت. فلنسن الأمر برؤسنا، أخبرتك أن  
الدين الصابئي للصباينة فقط ولا أظن أنه من الواجب أن  
يتحدث بالمندائية غيرهم.. فلا تفكر بهذا الأمر..

اقتربت منها وقلبت: ربما أحتاج لأن أترود  
بإيمانك أحتاج إلى مساحة من الإيمان لتجمعنا..

- ومن قال بأنني مؤمنة!

- رأيتك تصلي!

- أنا لا أصلي بسبب الإيمان، بل بسبب المرجعية.

- وكيف ذلك؟..

- أحتاج لمرجع يا هدام!.. شيء أعود إليه بخطاياي  
وذنوبي وطاعاتي!.. لا أحب أن أكون المرأة المجتة  
على الرغم من كرهني لعنصرية الدين.

- لكنك ومع كل سوابقك، لديك شيء من الإيمان  
وبعض من التقوى!..

- ألم أقل لك في أول ارتظام جمعا إن القصائد  
نصوص مقدسة ولا يحق لأحد بأن يمسها أو يتصرف  
بها!..

- سيفخر لي!.. أدرك تماماً أنه سيفخر لي..

- لو تدري لكم أكره الأديان، ولكم أمقت اختلافاتها  
يا هدام!.. الأديان هي التي تجعلنا نحتف من بعضنا  
بعضاً، هي التي تنفينا من أوطاننا، وهي التي تحرمنا من  
أن نختار من نحب..

- ألهذا تركت العراق!؟..

- أنا لم أتركها، أنا نعت منها. نعتني العنصرية  
التي وأدت حبي. ولم أتمكن من مقاومة الشقي بلا  
حب..

شعرت بالغيرة تتسرب في أعماقي وأنا أستمع إلى  
ولادة.. لا أدري لماذا غرت من حديثها عن ماضي  
صحيح! أنا أدرك أن امرأة بعمرها، امرأة بجمالها  
باختلافها وتفردها.. لم تكن لتبقى طوال هذه الأهوام  
من دون أن تعشق أو تُعشق.. لكن حديثها بهذه المرارة  
من حب قديم.. جعل شيئاً في أعماقي يغلي. شعرت

بدمي يغور في أوردتي، أنا الذي لم تظا الغيرة نفسه يوماً..

قالت: فيما تفكر... ١٩..

- لا أعرف!..

- لو تدري كيف يمضج وجهك حينما تكذب!..

تجاهلتها، عدت إلى أريكتي. وأخذت أتأملها من بعيد وأما أفكر في تشابهها، هي التي نقاها الدين وأنا الذي نفتني العادات، أخذت أفكر في الحب الذي جعلني وإياها نتارل عن كل شيء لتوه في دروب العربة الباردة..

سألتها: أتظنين بأن حبك كان استثنائياً

أجابت بسحرية: أتظن أنني كنت لأكون هنا، لو لم يكن!..

صمت قليلاً: وماذا أيضاً؟.. شاكو ماكو!..

ضحكت، وضحكت.. وضحكت.. حتى خيل إلي أنها لم تضحك يوماً!.. كانت تضحك من أعماقها.. للدرجة أضحكتني على الرغم من النار التي كانت تشتعل في داخلي..

سألتني وهي تضحك: ما أسرك يا رجل!..!.. أنفاز!..

قلت مكابراً: لا أدري!..

- أحمرث أذنك!

- حقاً!

قالت: كان حباً عاصماً وقتذاك، لكنه من الماضي.. وأنا أوافق أنيس منصور في أن الماضي جميل لأنه ذهب ولو عاد لكرهناه..

- أكان مسلماً!.. ١٩..

- كان شيعياً مسلماً.. وقد كان زميلي في الجامعة..

- لم يكن هناك مجال للزواج إذا!..

- كان زواجنا مستحيلًا، فزواج الصابنية من غير الصابني يعد انتحاراً. ما بالك إن كان والدها مؤمناً!.. والدي كان متعصباً في الدين إلى أبعد حد، كان يستيقظ من نومه ويتوجه في كل صباح إلى النهر ليؤدي الرشامة.. كان متشددًا في أدائنا للبراعة ثلاث مرات يومياً.. كان حريصاً على تعليمنا العندائية مع أن أغلبية الصابنة لم يكونوا يجيدونها وقتذاك..

- فلنساعديني قليلاً... فهمت أن البراحة هي الصلاة.. لكنتي لم أفهم ما هي الرشامة..  
ابتسمت: الموضوع.. كان يتوضأ في النهر على الرغم من أن مؤمينا المعتدلين قد أباحوا لنا الرشامة بغير المياه الجارية..

واسترسلت: أتدري أن أغلب الصابنيين يحضرون التعاميد ويؤدون البراحة وهم لا يفهمون شيئاً مما يتلون فيها.. كنت أفكر دائماً كيف نؤمن بما لا نفهمه وبعثق ما لا يؤثر في دواخلنا.. عندما كنت أحضر التعاميد كنت أشعر بالتأثر والحساسية، لأنني كنت أفهم ما يتلى.. لكن أغلبية الصابنيين لم يكونوا يفهمون شيئاً منها، ومع ذلك كانوا يصرون على حضور التعاميد وعلى أداء طقوسها بخشوع ومحبة..

- متى تركت العراق ؟

قالت وهي تطلق سيجارتها في ديسمبر 1988، بعد انتهاء حرب الخليج الأولى  
- وكم كان عمرك وقتذاك؟

قالت مبتسمة. أنطرح كل هذه الأسئلة لثعرف كم أبلغ من العمر؟.. كنت في الثامنة عشرة..

- ثمانين الأربعين إذاً..  
- لا يفصلني عنها سوى أشهر..  
- أتدريين أنسي تركت الوطن وجئت إلى هنا في ديسمبر أيضاً..  
- لعالمنا آمنت أن ديسمبر شهر النهايات..

جلست على الأريكة المقابلة لي واسترسلت: في البداية أنا لم أجد إلى هنا، بل توجهت إلى بيروت التي كانت تحترق تلك الأيام بعمل العنصرية أيضاً، درست في جامعة القليس يوسف لأشهر ومن ثم تركت لبنان وتوجهت إلى هولندا وأقمت مع إحدى العائلات اللبنانية في روتردام.. أنهيت دراستي الجامعية في العلوم المسرحية.. ومن ثم تعلمت العزف على الكمان.. وحصلت على الجنسية الهولندية بعدها..

- ومتى جئت إلى هنا؟

- في بداية فبراير الماضي..

- جئت لتصليني بي إذاً

- بل جئت لتصلكم أقدارنا في ليلة من مطر..

- وما الذي فعلته في لندن؟

- أعمل ما أحبه.. وألتقي من أحب..

- ألا تفكرين في العودة إلى العراق يوماً؟

- العراق... أي عراق، العراق انتهى برحيل الرصافي والبياتي والحيدري والسياب وبارك... لم يعد هناك عراق يا هدام... لم يعد هناك عراق.

أخذت أتأمل تلك المرأة التي كانت تنزّ المأ... وتنتفض حزناً على وطن كان جلياً كم تجاهد لإنكاره... كانت ولادة تحاول التبرؤ من عراقها لأنه لم يقدر على أن يحتويها ولم يتمكن من إنقاذ حكاية حبها... أخذت أفكر بما فعله المصري فينا... وكيف تشوّه الأوطان في أعيننا بلا ذنب ترتكبه الأوطان... سوى أنها ضمنت بين حدودها بشراً ينتمون إلى عقائد وأعراق مختلفة... ولا قدرة لها على أن تجعلهم يتعايشون كسواسية، أو أن تعاملهم بمساواة...

هذه النحلة العراقية السامقة لم يكن من المفترض أن تعيش بعيداً عن عراقها، هذه العاتكة كان من المفترض أن تكون الإلهة إنانا أو أن تكون الملكة شاميرام... هذه الباهرة كان من الواجب أن تكون قديسة عراقية... وأن يُعرف العراقي بولادة مثلما عرفت الأندلس بولادة أيضاً...

قلت: لو يدرك العراق أي ولادة خسراً! خسرك العراق يا ولادة... خسرك العراق...

- العراق لا يأبه لمن يخسرهم يا هدام!... وأنا لا أهد العراق وطني، بل حيث تكون المساواة يكون الوطن

- أتدريين... لطالما آمنت أن العراق مهد الحضارات وموطن التعايش...

- ألم يقل أحد خلعائكم إنها أرض شقاق ونفاق؟!...

- بل يقال بأنه الحجاج وليس الحجاج برجل تُستقى منه الحكمة...!

صمتت، فسألته: ألا ترغبين بمعرفة تفاصيلي...؟

وقفت قائلة: لاحقاً يا هدام!... لاحقاً...

كان من الواضح أن الحقيقة أنهكتها، وأنها بحاجة لأن تكمل ليبتها وحيدة... لتجاوز آلام الحقائق وجروح الماضي التي كان جلياً كم كانت ملتهبة...!... مسحت على شعرها وأمسكت يدها وراقبتها حتى الباب... سألتها وأنا أقبل رأسها: متى أراك؟

قالت وهي تنفّسني بقوة: عندما تصطدم أقدارنا مرة أخرى!

أخذت أناملها وأما أفكر في ما تعيه بجملتها ثلث، كان واضحاً أنها ليست راضية بالحديث أكثر، كان جلياً كم هي مرهقة.. وكم هي بحاجة لأن تهرع إلى حيث تنزوي عادة.. فلم أجادلها، مسحت على شعرها وقلت: سأنتظر!..

خرجت ولأدة، وتركتني وحيداً في مواجهة شيء ما لم أفهمه.. كنت مرتبكاً بحزني، متضخماً بالبأس. وبارد الأحلام.. عرفت ليلة داك كم هو من الصعب أن يفصل الماضي عن سلسلة الحياة.. وأن سلسلة الحياة التي تبدأ بالماضي لا تمرّ إلا بالحاضر، ولا تنتهي إلا بأحر لحظة يتوجب علينا عيشها في المستقبل.. الماضي هو المرجع الذي يشكل صورة حاضرننا وملامح مستقبلنا.. فلماذا نظن بأننا قادرون على طيه وعلى الماضي قلعاً!؟..

الماضي الذي نصرّ على أنه مات، سيظل حياً ما دنا على قيد الحياة.. الماضي لا يموت.. لا يموت!.. موته ليس إلا وهماً، نحاول إقناع أنفسنا به ليعفر

الآخرون لنا أعطائنا الماضية، ولتفدر على العيش بلا لوم ولا عتب..

اليوم أعرف أن ترسيات الماضي تملأ نفسي، وبأنني لم أتخلص منها يوماً.. بل كانت تتراكم وتتراكم وتتراكم داخل أصدافي حتى باتت تخنقي، لكنني لم أفهم ذلك قبل اليوم.. لم أفهم أبداً!..

أنا الذي ظننت أنني اسلحت من كل شيء يربطني بالعائلة وبالدين وبالوطن، كنت مقتنعاً بأنني قادر على أن أنتهي من كل شيء.. وعلى أن أبداً من حيث انتهيت من دون أن يربطني بالنهاية السابقة شيء.. لم أكن أفهم أن الحياة ليست إلا سلسلة ثلاثية الحلقات، وأن سقوط أي حلقة من حلقاتها هو محال من محالات القدر..

أعرف اليوم أنني ممتلئ بما حدث.. وأن الدروب.. كل الدروب تغضي إلى من حيث جئت اليوم أعرف أن الأوطان ليست إلا ضحية من ضحايا البشر.. وأنا نعلّمها أكثر مما تحتمل..

أعرف أن البشر المشرّبين بعادات الجهل وتقاليدهم من يدمرون أحلاماً ومن يجهثون قلوباً، ومن يزرعون في دواخلنا مساحات سوداء من الحقد

الحام... هؤلاء البشر هم الذين يدفعوننا لأن نهرب من  
أوطاننا ونترك كل شيء، هم الذين أوهمونا أن القاسون  
يحميهم، وأن الذين يرعاهم... فلا نجد مهرباً إلا أن  
نخضع لهم فنصبح نسخة عنهم أو أن نهرع إلى أقرب  
وطن/ملجأ محاولين نسيان كل شيء..

اليوم أدرك أنني لم أنس. ويأن ما حدث، كل ما  
حدث، لا يزال نصب عيني مهما حاولت إغلاقيهما..  
ومهما أذهيت أني لا أرى شيئاً مما مضى.. اليوم أدرك  
أن كل محاولاتي لطمس ما حدث لم تحقق نجاحاً، فلا  
ذاكرتي عطيت ولا ذكرياتي محبت ولا تمكنت يوماً من  
الانتهاء مما مررت به..

اليوم أعرف أن قلبي لا يزال يشن عتياً، وأنني غير  
قادر على العودة من شدة العتب!.. أنا الذي لم أفهم  
 يوماً كيف فعل بي الوطن كل هذا، كيف انتزع مني تلك  
الطموحات والأحلام، الوطن الذي حرمني من أن أساهم  
في تقدمه، وفي أن أتسبب في إهماره، وفي أن أمارس  
حياتي بين ربوعه، وأن أعيش فيه بحب.. وأموت فيه  
بولع...!

أعرف أنني غير قادر على العودة الآن، لا شيء في

وطني ينتظرني ولا أحد فيه يحبني، لكن جزءاً مني  
يحتاجه، وجزءاً مني يحبه على الرغم من كل شيء...  
عندما غادرت الرياض قطعت تذكرة الذهاب بلا عودة،  
وظننت أنني لن أفكر في العودة أبداً لكنني أظن الآن  
بأنني "قد" أرغب بالذهاب يوماً... يتفق أطلال  
الحب، بزيارة أنقاض أحلامي واستشعار رماد  
استقراري..

عندما غادرت، قررت أن أذهب حيث تذهب الريح،  
فسأقضي الريح إلى لندن.. وفيها بدأت حياة جديدة،  
وعشت في عالم جديد.. وعرفت من خلال لندن كيف  
أكون رجلاً قاسياً.. بارداً.. لا يلتفت وراءه ولا يتندم..  
لكن ما تركته ورائي جاء أمامي فجأة!.. واجهني ببسالة  
نبي جور.. فارتبكت أفكاري واهتزت مشاعري وتزلزل  
إيماني بالإيمان فجأة!..

عندما نحزن في العربة، تنمو أحزاننا حتى يكاد  
صوت الحزن أن يبعث. في العربة لا قدرة لأحد على أن  
يحتضن أوجاعاً ولا على احتواء تيمثرنا. هناك لا أحد  
يشبهنا، حتى لو حلقتنا ذقوننا.. ومرحنا رؤوسنا وتحدثنا  
الإنجليزية بلكنة حمقاء باردة

هناك، جميعهم يتشابهون. نحن فقط من يختلف عنهم، نحن الدخلاء الهاربين من جراحنا، اللاجئين من أوطاننا بسبب حزن ماء حرب ما.. حب ما.. عقيدة ما.. قبيلة ما..

هناك، نحن نعيش دون المستوى على الرغم من ثروتنا والبلح الذي يحيط بكل مكان نتواجد فيه، لكن شيئاً ما يجعلنا في نظرهم أقل منهم، شيئاً ما يجعلهم يعتقدون أنهم أفضل منا.. وإن كانوا لا يصرحون بذلك إلا أن أعينهم تقول لنا طوال الوقت، فلتعيشوا في بلادنا كما ترغبون.. ولتمارسوا حرياتكم بشتى أنواعها لكنكم ستظلون، ومهما حاولتم، أقل ما في كل شيء..

هناك.. نحن نظل الغرباء مهما اندمجنا في مجتمعاتهم. ومهما تشابهت سلوكياتنا مع سلوكياتهم، مهما حاولنا تقليدهم.. وحتى لو حصلنا على جنسيتهم.. نظل نحن الدخلاء عليهم فيبقى معلقين بلا انتماء لوطن نعيش فيه، ولا انتماء لوطن تعود جذورنا إليه وما أمر شعور اللاانتماء!..

الليلة شعرت بأن يداً تطبق على عنقي.. ويأتني عابر في موجة حزن قارسة! شعرت أنني لا أزال أقف في

المكان ذاته الذي وقفت فيه عندما وصلت إلى لندن قبل عقدين من الزمن، شعرت أنني لم أترجح من مكاني قيد أملة ويأتي لم أحقق شيئاً على الرغم من مجدي!

في لحظة ما، تنهار كل أمجادنا فتصبح مجرد شعارات وكلمات، ومجاملات.. وأيام جميلة مرت وعبرت وانتهت!، الأمجاد لا تبقى أبداً الدهر، سكرتها تزول بعد أمد.. فبات في أعيننا وكأن شيئاً لم يكن..

أنا الذي كنت أتمنى في كل ليلة أستلم فيها جائزة أدبية من أي قطر عربي، أنا الذي لم أكن أقدر في أي ليلة من ليالي الترويج على النوم من شدة المشقة، والذي لطالما آمن أن رواياته هي أطفاله الذين سيحملون اسمه، وهي أمجاده التي ستخلده. أشعر اليوم بأنها ليست إلا مجرد أوراق سيطورها الزمن وستوقف الدور عن شرها يوماً، وسيشأها الناس تماماً..

اليوم، أعرف أنني لم أفعل في حياتي شيئاً يستحق المجد، أنني أعيش وحيداً في عالم من صقيع.. وأنتي قد أموت قريباً متلثراً بالوحشة، محتضناً الوحدة ومعتكفاً بالهم والحزن واليأس..

عندما اضطجعت على فراشي، أخذت الوجوه



والأسماء والأماكن تتراقص في ذاكرتي... ملامح أبي  
قبل عشرين عاماً، والذي بات كهلاً الآن، وجوه أخوتي  
الذين كانوا شباباً... هشام ورياض ويزيد... ابتسامات  
أخواتي سارة وجلاء وثورة اللاتي أظن بأن أطفالهن  
باتوا شباباً وشابات وأمي التي رحلت وتركتني أصارع  
البشر والمعدات والأحزان وحدي!..

تذكرت صمي مهد السكير، وعمتي موضي الفاسية،  
وجدتي الطيبة العمياء، تذكرت بيتنا القديم في حي  
الملز، مزرعتنا الشاسعة في محافظة حريملاء... ودكان  
أبي علي الحضرمي في ناصية الشارع. تذكرت دهاليز  
جامعة الملك سعود، ومدرسة ابن أبي يرون الثانوية.  
وسوق العويس... وإستاد الملك فهد...

تذكرت صديقي أحمد، وابن جارنا سعيد... و"شلة"  
كرة القدم... والمسجد القريب... ومستشفى الشميسي  
ومحيم طريق القصيم...

تذكرت ليلى...!.. ويكيث!..

بكيث وبكيث وبكيث. أنا حقاً لا أذكر متى آخر  
مرة بكيث فيها باستثناء العرات القليلة التي أبكتني فيها  
أغنية البيتلز... أظن أن دمعي بات شحيحاً منذ أن

وطأت رجلاي أرض لندن، وكأنّ عيني قد لمحهما البرد  
فجئتنا. فبت أقضي سنوات وسنوات بلا بكاء!.. أما  
الذي كان يشق على متن الطائرة المغادرة من الرياض  
كطفل مضروب، والذي استغرق بكاءه طوال الرحلة حتى  
شعرت أنني قد استنزفت كل دموعي... وإن كانت دموعي  
حينها لم تغب مشاعر القهر التي كنت أشعر بها وقتذاك  
حقها، حتى وإن ذرفت بها بحاراً!..

لا أزال أذكر نظرات المسافرين إلي... كيف كانوا  
يلتفتون تحوي بين الحين والحين، وكيف كانوا يتهاوسون  
وهم يشيرون بأعينهم إلي... كيف كانوا ينظرون إلي  
بشفقة واستغراب، وهم يفكرون بالأسباب التي تجعل  
شاباً في مثل عمري يشق بكاء على طائرة متوجهة إلى  
لندن، لندن التي كانت جنة الشباب وحلمهم الكبير  
وقتذاك!..

كانت رحلتي تلك أطول رحلة على الإطلاق!.. أنا  
الذي جيت العالم أجمع بعد تلك الرحلة، والذي قضى  
في الطائرات مئات الساعات... لم أشعر يوماً بأن هناك  
رحلة أطول من رحلة التحيب تلك، تلك الرحلة التي  
شعرت أثناءها أنني انتقلت من عالم إلى عالم آخر...

الرحلة التي لم تكن كأي رحلة أخرى.. الرحلة التي انتهت فيها وبدأت منها..

لا أدري أي حزن بقته ولا شيء تلك الليلة.. لا أدري كيف تجعلنا حقائق الآخرين في مواجهة مع حقائقنا فننتعري أمامنا كل الحقائق وتدعينا ذكرى الوقائع التي عشناها، وذكرى الوقائع التي عاشها من حبيبهم ومن نكثت لأمرهم..

حيما نثرت ولادة حولي تلك الليلة ما حدث لها وما وقع عليها، شعرت وكأنها كتبت على جراحي الملتحمة كومة ملح، فأوجعتني حتى شعرت بأنني سأموت وجعاً.. شعرت بفرغ ريسا حزني تنتشر حتى تكاد أن تقتك بي، فلا أنا قادر على بترها ولا أنا قادر على الشفاء منها.. ولا حل سوى أن استسلم لها.. قاموت حزناً وجعاً..

لا أدري كم بكيت ليلتها، احتضنت وسادتي كعتاة مراهقة وبكيت حتى ثعلت بكاء ونمت.. لا أدري كم من الأيام نمت.. ربما ليومين أو ثلاثة.. كنت استيقظ لأقضي حاجتي ولأشرب ماء وأعود إلى فراشي مجدداً فأنام وأنام واستيقظ فأقضي حاجتي وأشرب الماء وأعود إلى النوم.. كنت أحاول الهروب من واقع

لا أهمهم، وجروح بدأت تنعقن بعدما ظننت أنها انلملت..

استيقظت على قرع شديد على الباب وشيء من صوت جهاد يكاد أن يقطع في سبيل الوصول إلى مسامعي، قمت متثاقلاً، شعرت أن رأسي ثقيل كنت لا أزال تحت رطابة الدمع بعينين منتفختين وصوت مبهوح، ورأس ممتلئ ومراج قائم..

فتحت الباب بوهن ليطلب عني وجهه الهلع.. قال بارتياح غاضب: لك يحرب بيتك.. هي عملة بتعملاً؟ أعطيتة ظهري وجلست على الأريكة، ملدت يدي إلى حلبة سجائري.. فسحبها مني بقوة قائل: ما أمرك يا هدام.. بحثت عنك في شقتك وفي كل مكان.. حتى تأكدت أنني لن أجذك إلا هنا إما حياً وإما ميتاً.

لم أكن قادراً على الكلام، كانت كل الأحاديث معلقة في حلقي تأبى الخروج.. وضعت يدي داخل شعري أمسحه وكأنني طفل يستجدي من كبير أن يمسح على رأسه مطمئناً.. قال هدام أمراً وهو يرفرف قلقه: فتغسل وجهك!، ساعدك لك كوباً من القهوة.

كنت أشعر بالصعف نتيجة نومي المتواصل وعدم

تناولي للطعام، فقمنا واغتسلت وعدت إلى جهاد في المكان ذاته الذي كنا نجلس فيه آخر ليلة معاً... كان جهاد يجلس وأمامه كوبان من القهوة وكان حطرها لا يزال فواحاً، وشيء من حضورها لا يزال حاضراً... لكن شعوراً سيئاً بدأ يتسلل إليّ... لا أدري لماذا شعرت أسي لن أراها مرة أخرى، شعرت بحضورها يتسحب من العرفة وكأنه يابى البقاء. جزّ جنازتي كان يلعب المكان وحاسة سادسة تصرخ بأعصابي ويشاريني أنها لن تجيء بعد اليوم!..

سألني جهاد لماذا لا ترة عليّ!.. اتصلت بك عدة مرات ولم ترد ومن ثم أفرغني إغلافك لهاتفك، فذهبت إلى شقتك ولم أجذك فعرفت أنني قد أجذك هنا، إما حياً وإما ميتاً..

- كنت نائماً!.. لا بد من أن بطارية هاتفي قد فرغت لذا أغلق الهاتف..

- أنا لم أنت منذ ثلاثة أيام!..

- تقريباً!

- لماذا؟.. ما الأمر؟..

شعرت بأني غير قادر على النقاش، فقلت له محاولاً إنهاء الحوار: لا أمراً! كنت منهكاً من الكتابة فقط. شعر جهاد بأني بحاجة للبقاء وحيداً، فقام من مقعده قائلاً: لا بأس، المهم أنك بحير... على أي حال لا تنس أن قرسل إليّ بمقالتك قبل مساء هذا اليوم... أشرت برأسي بالإيجاب، فأخرج من جيب معطفه تذكرة ومشوراً دهائياً وماهما على الطاولة أمامي وقال: على فكرة، اتصلت بك قبل يومين لندعوك أنا ومادلين لحضور حفلة موسيقية أقيمت قبل ليلتين لكك أصعبت على نفسك فرصة التمتع بالأمسية الموسيقية وبقصاء ليلة جميلة معاً..

قلت له: لست بمزاج لأن أحضر أية حفلة أو احتمال يا جهاد..

قال وهو يحطو خطواته نحو باب الخروج: لك تصطف!.. ما تنسى المقال!..

فكرت أن أعود إلى النوم بعدما تركي جهاد، لكنني كنت أعرف أسي ساموت لا محالة إن ظلمت على هذه الحال... حاولت أن لا أرغر في مشعر الوهن، وأن لا أمنح حاجتي بالاستسلام والنوم أي مجال... فأعددت

فطوراً بالكاد تمكنت من تناوله، وارتديت ملابس أنيقة وأخذت منشور دعاية الحفلة الموسيقية ومسودة روايتي المعلقة بلا نهاية وخرجت للبحث عن حياة..

كنت أحاول أن أطرد أفكار السلبية التي أصبحت تنفّاقم.. فخرجت أمشط الشوارع بلا غاية، لتقابلني وجوه زرقاء من شدة البرد وعدم الاكتراث.. كنت أمشي بلا هدف وأنا أسعل برحاً وكآبة.. شيء ما في لندن كان يزار، كان يشير بيده إليّ صائحاً في وجهي: أنت فاشل!..

واليوم أنا أعرف جيداً أنني لست إلا فاشلاً، فما معنى أن نحقق نجاحاً عملياً ومجداً أدبياً إن لم نحقق أي إنجاز عاطفي!.. ما فائدة المجد والشهرة إن لم يكن هناك سعادة!.. السعادة التي لا تتحقق إلا بالاستقرار.. الاستقرار الذي لا يحتويه إلا عندما تضمّننا العاطفة، العاطفة التي مصدرها العائلة أو العاطفة التي تصبح مصدراً لخلق عائلة، وأنا نجحت في كل شيء عدا عاطفتي!.. ولا أظن بأنني سأقدر على النجاح في خلق عائلة ذات يوم..

كنت أمشي في طرقات لندن، بحثاً عن وجه

يعزّيني.. بحثاً عن ملامح تشبهني، لكن ملامح من يشابهوني هاربة من ملامح من يشابهونها.. فكيف أبحث عن من يهرب مني، أنا الذي لطالما هرب من تلك الملامح!..

جلست في المقهى الذي كنت أقابل ولادة فيه... كنت أحاول أن أستجمع أحزاني لأتمكن من إنهاء روايتي.. لكن ولادة كانت كل ما أفكر فيه.. كنت أشعر أنني لن أقابلها مرة أخرى.. لن أراها أبداً، على الرغم من وعدها المعلق الغامض الأخير، أنا رجل حاسته السادسة تفوق حواسه الخمس في دقة الإحساس!.. رجل يجيد التكهن بكل شيء قد يصيبه، ويكل مصيبة قد تحلّ عليه، ويكل نهاية تقترب منه.. رجل يعرف النساء، ويدرك متى يبدأ معه وكيف يرحلن عنه ومتى يتبين منه..

الفراق مرّ، مرّ جداً.. تعتقد النساء أن الرجال قادرون على النسيان بسهولة.. وأن تجاوز علاقتهم الفاشلة لا يتطلب شيئاً، وهنّ لا يدركن أن الرجل عندما يقع في حب امرأة يتشرب بها، وتلبس به.. النساء لا يفهمن أن حبّ عمر الرجل لا ينسى..

لم أكن أظن أن حبي سيأتي بهذه الدراماتيكية القاسية.. حب متأرجح الحضور على الرغم من ارتفاع حرارته.. مبهم الحقائق على الرغم من حدته.. حب جاء ليعزني وليشركني ملهوراً.. حب بدأ ضبابياً وانتهى ما أن تجلّى!..

حاولت الكتابة،.. حاولت أن أبتدئ مقالي أو أن أنتهي من روايتي لكنني لم أتمكن من كتابة أي شيء، وعندما أمسكت المنشور المخصص للحفلة الموسيقية، صدمتني صورة أندريه ريو وصورة ولادة بفستان أسود طويل.. تحمل على كتفها نايلاً.. وشعرها الأسود يملأ الإعلان بصورة تراجيدية مثيرة!.. كتب في الإعلان: الفنان الهولندي أندريه ريو ترافقه الفنانة الهولندية ولادة رافد يودمان لندن بحفلة موسيقية يحييها في آخر أيام الأعياد..

لم أكن قادراً على الشعور بأي شيء حينذاك، من كان يصدق بأنني كنت قاب قوسين أو أدنى من أن أراها لآخر مرة!.. أن أراها كما هي في حقيقتها..!؟.. تمارس ما تحبه أمام من تحبه..!؟.. ومع من!؟.. أندريه ريو!.. لم أكن قادراً على استيعاب كم من

الممكن أن تسخر منا الأقدار.. وكم من الممكن أن يكون شيء قريب منا بعيداً هنا..!؟.. لحظتها، تأكدت من أنني لن أراها.. وأن اصطدامنا الذي متنتي به قد لا يحدث أبداً.. لحظتها شعرت أن ديسمبر يكاد أن يخونني.. ولا أدري لماذا يسعى لإيذائي ديسمبر!..

لكم تعذبني لياليه الواحدة والثلاثون.. تجلّلني بسياط الترقب كزائن، وتفرع طبول الخوف داخل قلبي.. كاحتفاء عجري ثائر ومجنون لا يفهم!..

أنا لا أنكر مزاجيتي،.. لكن ديسمبر فوق كل أمزجتي..!؟.. ديسمبر شهر سلطوي بكل تأكيد.. ذو سطوة وهيبة وتأثير.. لكنني لا أفهم على الرغم من كل ذلك.. لماذا تنتهي كل الأحلام في ديسمبر!..

قال لي أحد أصدقائي الذين يفلسفون كل شيء، إن كل الأحلام تنتهي بالنسبة لي في ديسمبر، لأن أغلى أحلامي انتهت فيه.. قال لي إن بعض خسائرنّا ترتبط تلقائياً في أعماقنا بالموسم أو بالشهر الذي خسرنّاها فيه.. وبالتالي يصبح هذا الموسم/الشهر.. موسم تأيين بالنسبة لنا في كل عام، لأن ذكرياتنا تنحدر خلالنا في



لاوهينا.. وبالتالي تمر أيام الذكرى بمرارة وحزن لا تفهم أسبابهما..

لذا أنزوي في كل عام فيما يبدو أنه شهر أعياد بالنسبة للعالم.. ففي ديسمبر يحتفي البشر جميعهم في شتى أقطاب الأرض بأعياد تملأ الأعياد في شهر ظاهره احتفائي لامع وجذاب، لكن في قلب ديسمبر تكمن أحزان الناس وخائرتهم..

تحاول الفرح بالألعاب النارية التي تدوي احتفاء في كل مكان، نجاهد لتصديق أن سائنا كروز يشيع البهجة في قلوب البالغين.. نسعى لأن نستمتع بموسيقى الفرج- المنبعثة من الأرجاء، والضحكات والرقصات والأمنيات..

كل هذا ادعاء.. كل هذا لا يسعد "فعلاً" إلا الأطفال.. أما نحن، فنرتقب ديسمبر بعين تكاد أن لا ترمش خوفاً من مكره..

شعرت بالكآبة تخنقني.. وبالرغبة في أن أنتهي من كل شيء.. مثلما انتهى كل شيء مني.. فغادرت المقهى إلى المنزل أجراً أذبال الخسارة والخذلان.. وفي طريقي شاهدت امرأة تعزف الكمان على ناصية الشارع، وقفت

أستمع إلى الحانها.. وأنا أفكر في التي عزفت أحزانها وغابت، من دون أن تسمع أنين أحزاني ومن دون أن تمنحني فرصة وداعها..

كان رحيلها بتلك الطريقة أكبر من أن أقدر على تحمله.. شعرت وكأنها جاءت لتشحن ذاكرتي بكل حزين ومؤلم فيها... وكأنها جاءت لتوجعني وترحل.. كان رحيلها شديد المرارة بقدر ما كان مجيئها لأذع الحلاوة..

ولادة لم تكن سهلة الطباع، كانت مغرورة، عنيدة، مكابرة.. وتفوق نأريس في نرجسيتها.. لكنها كانت تشابهني في أوجه عديدة.. كانت تشيع مقدساتي الأربعة التي لم ولن تقدر امرأة غيرها على أن تشيعها..

أنا رجل يقدس عقله قبل أي شيء، يقدس روحه وعقله وجسده.. رجل يحتاج إلى امرأة تحترم مقدساته، تحبها.. تشيعها.. وتملك مقدسات لا تقل عن مقدساتي في قداساتها.. وأنا على يقين أن هذه المرأة لن تكون سوى ولادة..

لكنني لن أبحث عنها،

لن أبحث عنها مهما توجعت.. فكل شيء يبتدئ

لسبب، وكل شيء ينتهي لسبب آخر!، وأنا أدرك الآن  
أن تلك الرسالة لم تبعث إلا لتوصل إلي رسالة ما،  
وثبت في وحي العودة.. لكنني على الرغم من إيماني  
بما أرسلت من أجله، لن أستجيب للرسالة..

أخرجت محفظتي من جيب معطفي، وأخذت باوند  
ولادة الذي عايدتني به في عيد مضي.. وضعتته هو  
ومسودة روايتي والإعلان الدعائي لحفلة ولادة وساعة  
يدي التي تتقدم ثوقيت لندن في الصندوق الذي كانت  
تعزف المرأة أمامه بلا أدنى شعور بالندم..

ففي ديسمبر تنهي كل الأحلام!..

2010/12/25م

أيثر عبدالله النشمي

"ربي إني لا أسألك أن تحقّق  
حلمي.. لكنني أسألك أن تمنحني  
ظهراً قوياً".

غوته